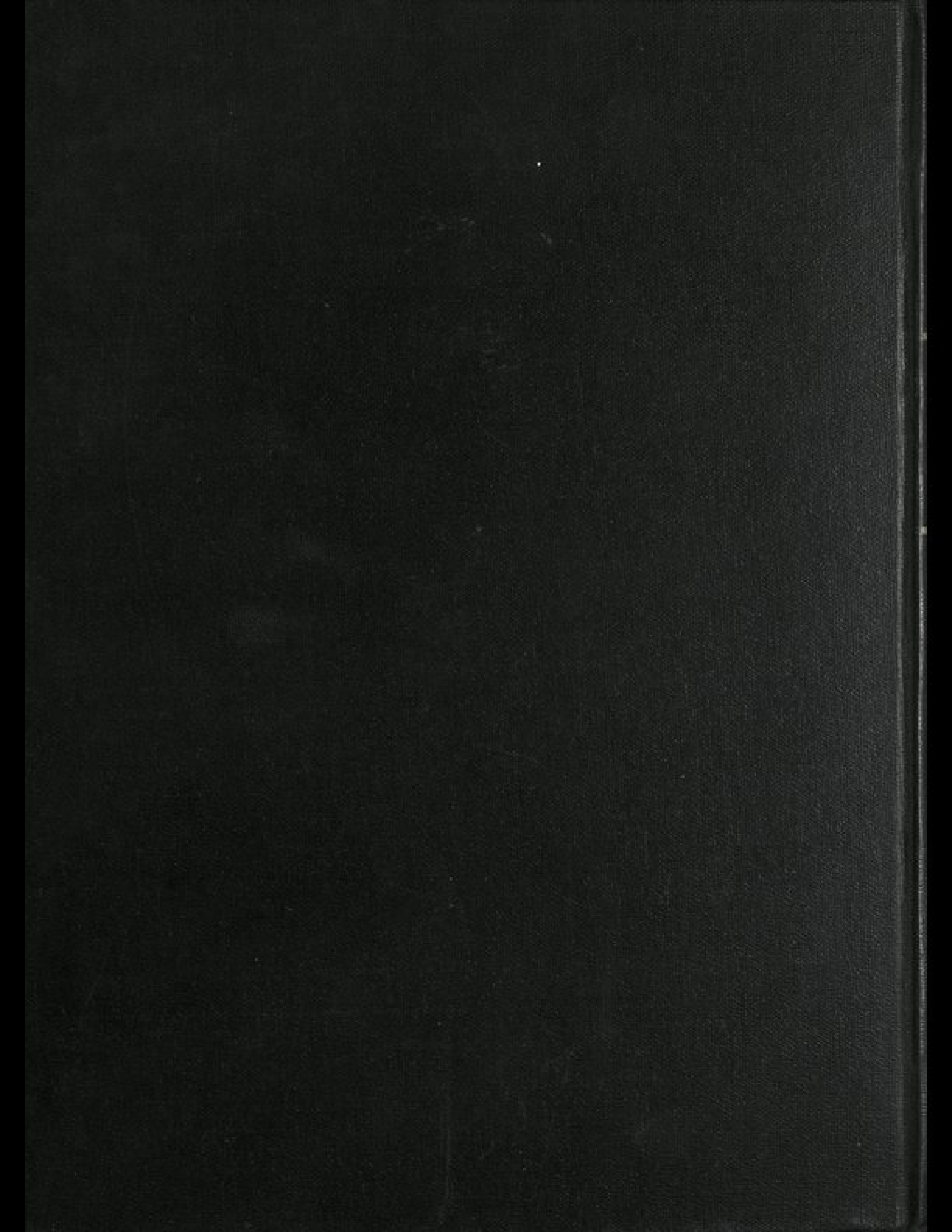


النسمات

النسمات

بقلم

سلمى صائغ

جمع

جرجي نقولا باز

المطبعة الادبية * بيروت



الى أنس العزيزة

السائرة بسرعة الى ذروة الكمال الانساني . والمضيئة بروحها النيرة سبيل «رسول» جهادنا النسائي

الى المرأة التي علمتني ان اخدم بمحبة ومعرفة اقدم هذا الكتاب

سلمى

تمهيد

اتمنى لو كان لي اسلوب كاتبة « النسمات » لأحسنَ التمهيد . لان كتاباً نفيساً ممتازاً كهذا الكتاب اولى بمثل انشائها منه بانشائي ، ليوازي تمهيدُه فصولَه

اما وانا المحظي بجمعه وملاحظة طبعه والمستلذُّ مراجعته وتكرار مطالعته والمعجب جداً بكاتبته ، ولا بدّ لي من تدوين تمهيد له ، عملاً بعادة المؤلفين فلعلي استمدُّ من جماله جمالاً استطيع بهِ ايفاءه واجب التمهيد ولو دون ما يوازيه

ولا اتعمَّد تعريف الكاتبة وهي « بيراعها الساحر » غنيَّة عن التعريف ومطالِعاتُها يعرفنها من زهاء عمر البدر في زمن « حسنائي » ثم في « مينرفا » و « الفجر » و « الخدر » و « المرأة » و « الحياة » الجديدتين . ومطالعوها يذكرونها من عهد « البرق » الى « المعرض » و « السائح » و « الشعب » و « لسان الحال » و « مجلة سركيس » وغيرها من الصحف العديدة اخذاً عن بعضها

ان كاتبتنا النابغة ولئن تجاهلت موهبتها اتضاعاً وحرمتنا منها توفُّرَها على الانشاء جهدها في ما مضى الا ان اليسير الذي انشأته فيه من الابداع شيء كثير فيه جمال وفنّ ، فيه ريشة مصوّر ونغمة موسيقي وخيال شاعر ومعرفة عالم وادب كاتب ورأي مفكّر وشعور حسَّاس ، فيه وطنيَّة وحريَّة وغيريَّة وانسانيَّة فيه جرأة ونهضة وحكمة ومحبَّة ، وفيه شفوف لامس الروح وسموٌّ بلغ السماء

فرأيت انّ من اجمل الخدم اودّيها لبنات العرب أن اجمع ضمّة من زهر آداب سلمى ، ابرهن بها اهلية المرأة لمباراة الرجل فكراً وانشاء ، حتى في المواضيع الجديّة الجافّة ، تاركاً لهن ولابناء جنسي الحكم في ذلك

فسالت نابغتنا السماح لي بجمع هذا الكتاب من بدائع آثارها ، خدمةً للامة . فاجابت سؤلي مشترطة عليّ ان تجعله من فضلها هديةً منها الى زوجتي وان انشر فيه كلمتها عن كتابي « اكليل غار » التي جعلتني فيها من حسن ظنها بي ، شيئاً مذكوراً . والاّ امدحها بكلمة

ولئن عملت بشرطيها الاولين فلا اعمل بالثالث وان سكتُّ فسوايَ يتكلم . وهذه نسماتها افصح متكلّم

نسمات باردة حارّة منعشة لاذعة فيها من تغريد العصفور وهينمة النسيم ومشبهات بزوغ الشمس ومغيبها وطلوع البدر وتلالؤ النجوم ، ورواء الزهر وشذا العبير . فيها من حنان الامّ ومن شعور الاخت ، ومن تجرُّد المخلصة ، وفيها من حزم المهذّب وجزم المعلّم وايمان المرسَل واخلاص العامل الانساني

ومهما برهنت اثار سلمى نبوغها فامامها مستقبل عظيم . ولا غروَ فهي صائغة اسماً وفكراً وانشاء . هي سائرة مسرعة دواماً الى الامام ، وشعارها من حسن الى احسن ومن بديع الى ابدع شأن الفنانين النابغين

وسيلي « النسمات » كثير من بدائع سلمى ، ان شاء الله

جرجي نقولا باز

اغاني الجنود

١

ارجعوني الى بلادي ، فقد اشتاقت نفسي سماء بلادي

ارجعوني الى الشاطيء البهيج ، ذي الرمال البيضاء ، حيث تمرّغت طفلاً ، وحلمت فتىً ، واحببت شاباً ، وانحنيت كهلاً

ارجعوني اسمع نشيد الامواج تردّده البحار منذ مئات الاجيال ، فيتخدّر دماغي ، وتسكر مخيلتي ، واحسب نفسي قطعة من الخلود ، وقسماً من الجمال

. . .

ارجعوني الى لبنان فارى بناته يقطفن العنب والتين و يستقين المياه العذبة من الينابيع ، و يرجعن عند الغروب اسراباً تمرُّ بين الصنوبر فتختلط اصواتهن الحلوة بحفيف الاوراق ، ونقيق الضفادع ، ورنة الناقوس على التلال البعيدة

ارجعوني . ارجعوني . ارجعوني ساعةً اسمع هذه النغمات فيدقّ لها ناقوس قلبي

الجندي الشيخ

انا كهلٌ جاوزت الخمسين ، سُحبت جندياً وقد كاد ظهري ان ينحني فتركت مدينة آبائي وسرت بين يدي ضابط صغير خليع امسح حذاءه ، واطعم

فرسه ، وانا سيدٌ في قومي ، اميرٌ بين بني عشيرتي

مشيت نهاراً وليلاً ، وليلاً ونهاراً ، حتى حسبت ان ليس للعذاب آخر ،
مشيت على الجليد وجررت ثقل الحديد ، وتساءلت رباه ! أما للظلام زاجر

ارجعوني الى قريتي فاجلس امام الموقد وارى اولادي واحفادي
يلعبون فيمثلون شخصي آن كنت صبياً ..

ارجعوني ، يلامس قلبي قلوبهم الخضراء فاعود فتياً ..

ولكن هل يهمكم إفراح الحياة يا من تعيشون لسلب الحياة ؟

الجندي الشاب

انا شاب ، جُررت الى الخنادق ، وكُلفت حصد النفوس ، فحصدت
وحصدت ، وحصدت

حصدت حقولاً اغراسها شبان وفتيان

حصدت شبيبة قوية ، نشيطة ، منظمة ، عالمة متفننة ، كل ما في اوربا
من الجمال والقوة والعلم والفن كله مرَّ امام الالة التي حصدَتْ ولم ترحم

حصدت البستان ، تلو البستان ، تلو البستان

كانه سباق بين الامهات ومعامل كروب

هذه ترمي الوف القنابل ، وتلك حبات القلوب

حصدت وحصدت حتى ذابت حشاشتي من منظر الدم فصرخت رباه
اما للجور قاهر ؟

ارجعوني الى بيتي فارى عروسي الصبية وطفلي الصغير ، هل عرف
رجلٌ قبل اليوم معنى ابتسامة المرأة وقبلة الولد في الصباح والمساء ؟

هل درى ان في عيون الاطفال آية من الحان السماء ؟
ارجعوني فقد تاقت نفسي لملامسة خدٍ صغيرٍ نعوم
ارجعوني لأشعر بوجود النعيم
تبارك خالقه الجبار العظيم
ولكنَّ نعيمكم دم وسماءكم صواعق
ولكنَّ نعيمكم للانسان جحيم

الجندي الفتى

انا فتىً اقتطعوني من صدر امي ، وامي عروس بين البنات ، وفلَّة بين زنابق المروج

جرُّوني وانا صغير ، فكلِّفت حمل الجرحى تحت صواعق الفولاذ الاحمر ، وانا لم اتعود روئية الدم

امي حنون تبكي لذبح العصفور ، وقد ربيت في احضانها ، ولا اب لي يعلمني الخشونة فنشأت نحيفاً حساساً تسيل دموعي كدموع البنات

اناموني على الحضيض وفي الوحول ، ومذ رأت عيناي النور انام في سرير امي ، وسرير امي شيء كعرش سلطان له ملاآت كتانية وستائر من حرير ، وغدائر امي الشقراء تملأ الوسادات وتقيني البرد في ليالي كانون

خذوني الى خدر امي والى انفاسها النقيّة ، خذوني ! ان في نظرات النساء نعيم الحياة ، وفي نبرات اصواتهن اناشيد الخلود

• • •

الجندي المتطوع

وانا رجل من لبنان ، هاجرت في اول امري الى حيث يقذف الشقاء ابناء الشرق المسكين

فكنت اسدُّ رمقي وارسل من وراء البحار ما يقوم باود عيالي

وبغتة هتف البوق وسُدَّت البحار فتطوعت مع المتطوعين ورميت بنفسي داخل البركان البشري كي اموت فلم أمُت

وسكت النفير فارجعني قائدي الى بلادي

فسرت الى قريتي وفتشت عن بيتي ، فرأيت مكانهُ اربعة جدران متداعية ، دخلتُ من المكان الذي كان في سالف الزمان باباً ونظرت في احدى الزوايا بقايا الموقد وفوقها اثار الدخان

ورايت على جدار شيئاً اشبه بازهار صناعيةٍ كانت تعلقها زوجتي حول ايقونة العذراء وتحت الايقونة كانت تضع سرير الاطفال

فجلست مكان ذلك السرير ورفعت نظري فوقع على المسرجة · فتذكرت نور السراج الزيتي الهادي · واغاني امي لاخي الصغير ورقص الصبيان اترابي ليلة العيد

وذكرت منظر النار في الموقد وصوت الرياح تعصف خارجاً

وذكرت وجه زوجتي وعنقها الممتلىء وصوتها الرخيم يحدو اغنية الامهات وحسبتُ انني اسمع صوت السرير الخشبي ذاهباً آيباً

فهرولت مسرعاً من ذلك المدفن الذي ضمَّ حبي وآمالي وآلامي وذهبت الى الكاهن الشيخ وسألته عن عيالي فروى لي الحكاية التي

سيرويها التاريخ عن اللبنانيين واللبنانيات ! !

باعت زوجتي حلاها وثيابها وفراشها ، ثم قطعت اغراس الزيتون في البستان · ثم باعت البيت واكلت ثمنه و بعد هذا نزلت الى بيروت مدينة الذهب والفضة مدينة الجمال والحب ، مدينة العلم والدين — مدينة الادب والادباء مدينة الهياكل والمدارس

ومدينة الخلاعة والفساد والظهور والرياء

نزلت زوجتي حاملة صغارها فتعلقوا باذيالها وتبعوها في الاسواق فاستعطت واطعمتهم وجاعت واشبعتهم حتى هزل منها اللحم وبرز العظم فانحطت قواها ومات فيها الانسان مات فيها نتيجة تهذيب المئات من السنين

وسرَقَت فسُجِنت في الدائرة ولما خرجت تعلّق بها صغارها فرمتهم وسارت في الازقة المظلمة محتفظة بالصغير الى ان مات الصغير · فحملته وأرته للناس ميتاً فاشفقوا عليها ولمّا رموها بشيء طرحت الميت وجلست تأكل بنهم الوحوش

واخيراً حُمّت ودنا الاجل فجرّت نفسها الى القرية وماتت امام عتبة الباب

قبل في القدم هنيئاً لمن له مربض عنزة في لبنان ! تعالوا · تعالوا يا عابري السبيل رثوا ارز لبنان وبساتين لبنان وعيون لبنان

تعالوا اشتروا السهل والوعر بلا فضة وبلا ثمن · تعالوا فقد بيع البيت والبستان بربع قنطار من القمح ، هلمّوا لشراء الجواري والعبيد فقد بيعت المرأة بريال والابنة برغيف !



انشودة المهاجر

ارجعوني الى لبنان ! الى اديمه وسمائهِ ، الى ثلوجهِ ومائهِ ،
الى ودياناهِ الجليله ، واكامهِ الجميله ، وغاباتهِ الخميله ، ارجعوني الى لبنان !

. . .

ان الحياة لفي اشعة الشمس البارزة من وراء جباله
والحبُ يَدُبّ خلال انوار البدر الساطعة فوق تلالهِ
ان العبادة لفي ليلةٍ من لياليه المقمرة وقد تفضَّض الجوُّ والاديم
وسجدت عناصر الكون ليهوَه القديم !
ان الخشوع لفي نظرة الى اشجاره الباسقات
تشابه ليلاً اشباح الجبابرة المرعبات
كل ما فيك يا لبنان يهيب بالنفس الى العبادة والامل
قباب اديارك القديمة وهي ترسل مساء اصوات النواقيس ، وخرير مياهك تتدفق في الوديان ، ودبيب الهواء بين اوراق الزان ، وهمس النسيم في مباسم الغزلان
كلّ ما فيك يا لبنان حبيب وجميل
هدير العاصفة تكسّر شتاء ضعيف نبتك يمثّل جلال رواسيك الشوامخ وقد وقفت صامتة تهزأ بالدهور
والثلوج على نواصيك تذوب في قلبك وتغور لتتفجر من عيونك انهاراً

وينابيع ، رموز ازلية لناموس التجدُّد الكامن فيك ، والنبات الاصفر الذابل اليابس على جوانب طرق العربات دليل على وجود الحياة في تلافيف تربتك يالبنان

حتى واللثام على رؤُوس العذارى مثال ابديّ للفضيلة الكامنة في نسائك . والفضيلة في نسائك هي دعامة حياة بنيك يالبنان

. . .

هل اعيش لارى الحياة تدب بين بنيك

رأيت الموت ناشراً اجنحته السود فوق كلّ ذي حياة فيك

رايت الحياة تمرغ في الاقنية والاقذار، رايت الشبيبة تمشي الى الفناء وقد مات فيها نشاط الانسان

رايت الاطفال تقطع من كبد الانسانية وترمى في سلسلة الحيوان

وآه! كم تفتتت نفسي على ما كان يجري فيك يالبنان

فتحت عيني للنور وكانت اغاني طفولتي اهوال سنة الستين ،

ففزعت لبني امي ونشأت نافراً من السفاحين كارهاً للمتعصبين

وكبرت فالفت حياة الشرق! وبحثت ولما تفهمت اشفقت على الذابحين واحببت الجاهلين

. . .

كبرت فاذا شبّان بلادي يهاجرون بالعشرات والمئات والالوف . ثم يرجعون فيأخذون من شابات البلاد زهرات يانعات عطرات

وهناك في ارض المهجر تنمو غريبة عيال لبنان ، متبعثرة في انحاء

المعمور من كندا الى المكسيك الى الامازون الى الشيلي الى اوستراليا

اعيدوا لي بنيّ يقول لبنان ، اعيدوا لي عيالي ، ارجعوا لي امتي ، عودوا اليّ فاجدد كياني القديم في الشرق القديم

. . .

كبيراً كنت او صغيراً فانت انت يالبنان

ولئن فصلتك جراحك الدامية عن سوريا فانت عين سوريا وقلب سوريا . هوذا بنوك في المشارق والمغارب (بنوك آن كنت صغيراً) يحملون النشاط في قلوبهم والانفة في نفوسهم

بنوك نفخوا في الشرق نسمة التجدُّد فتكهرب بها الشرق من سوريا الى النيل الى الجزيرة الى العراق

و بنوك يالبنان سيحملون في الغد فكرة الاتحاد المجيد

من على رواسيك ستبعث الحياة الجديدة الى الشرق الجديد

وفي وديانك ستنشأ فكرة اندغام عناصر سوريا ولبنان . اندغاماً لا يحله الجهل ولا تفرّقه الاديان

. . .

ارجعوني الى لبنان ! الى اديمهِ وسمائه ، الى نسيمهِ ومائهِ ، الى آكامهِ الجميلة ، الى غاباته الخميلة ، ارجعوني الى لبنان

الامومة

الى ابنتي

ان في نظرات الامهات نغم الحياة
وفي نبرات اصواتهن اناشيد الخلود

يا حلاوتكِ عندما دبيتِ وعندما شبيتِ
بل قبل ان ولدتِ
عندما تململتِ لاول مرة قرب فوادي فاحدثتِ في نفسي ثورة قلبتْ بلحظة كياني وحولتني من ولد خليّ طيّار الى كائن مثقل بالحنان والحب ،
وعندما وثبت الى الحياة بيديكِ الورديتين ، وعينيكِ المغمضتين ، الجاهلتين معنى الحياة والوجود
وعندما اتوا بكِ اليَّ فاخذتكِ الى صدري و بقيتُ طول ليلي اتاملكِ على نور الزيت الضئيل . ناظرة الى عينيكِ ، وجبينكِ ، وفمكِ ، وانفكِ وخديكِ وكل اعضائكِ المتناهية في الدقة والليان وقائلة في نفسي « هي لي هي لي » ! !
وعندما كنت اسقيكِ مذوّب قلبي واراكِ تنمين يوماً فيوماً بما تمتصينه من ماء حياتي . كم تلذذتُ في تلك الساعات الطويلة وسكبت نفسي امام هيكل حبكِ متمنية لو اعطيكِ كل ما في قلبي من دم وكل ما في نفسي من قوة وكل ما في كياني من حياة

وعندما فطمتِ فبكيتِ صدري فلمستِ اول هموم الحياة
ياحلاوتك في كل آن وزمان يا حلاوتك

. . .

يا لجمالك في الماء تشابهين الدمى والتماثيل ، وتمثلين لي الانسانية في ادوارها النقية من قبل ان ينخرها دود الامراض وسوس الفساد ! كم وقفت خاشعة امام تمثالك المعبود وكم تاه نظري بين استدارة ذراعيكِ ، وبضاضة كتفيكِ وتضاعيف عنقك . وكم خرق فكري الغلاف الجميل وتغلغل بعيداً بعيداً . فتمثلت رئتيكِ ، وقلبكِ الصغير يدفع الدم الى جسدك ويحييك بنظام المبدع الاسمى . وتمثلت قواكِ العاقلة تتكيف وتنمو شيئاً فشيئاً بما وجد فيها من خميرة وراثية وما يزاد عليها من تأثيرات المحيط . كم وددتُ لو ازيل كل ما اورثتكِ اياه — رغماً عني — من نقائص ومساوئ وكم تمنيت لو اعطيكِ كل ما اتوق اليه من خير وصلاح وكمال اسمى ! !

. . .

يالبلاغتكِ اليوم ، تتكيفين ، وتتفهمين ، فتقابلين وتحكمين . عندما تتأملين في خطوط وجهي وتحدّقين الى داخل عينيّ فتنعكس على وجهك الفضّ كل تأثرات نفسي وتلمع عيناكِ للهناء او تظلم لليأس او تضحك للسرور او تبكي للشقاء !

وعندما تقيّدين عنقي بذراعيك وتسالينني ٠امي لماذا انتِ نحيلة وصفراء ؟ لماذا لا تبسمين ؟ امي تعبانة لانكِ تشتغلين ؟ ثم ينتفض جسمكِ ويختلج فؤادكِ وترتجف شفتاكِ وتسيل دموعك . آه كيف تجثو نفسي عند

قدميكِ متوسلة اليك ان تكفي عن البكاء . وكيف اودُّ لو ادخل الى ذاكرتكِ الفضة فازيل منها صور البؤس واضع مكانها صور الهناء . كم تتسابق دموعي حناناً لحنانكِ وحباً لحبكِ فاضمك اليّ حاسبة انني اضم كنوز الارض وغنى الكائنات

كم سكبتُ من روحي في روحكِ . فاعطيتكِ حتى لم ابقِ ليَ شيئاً وعدت اليكِ فاذا انتِ نبع لا يعرف الجفاف يعطيني ويعطيني ويعطيني بلا حساب

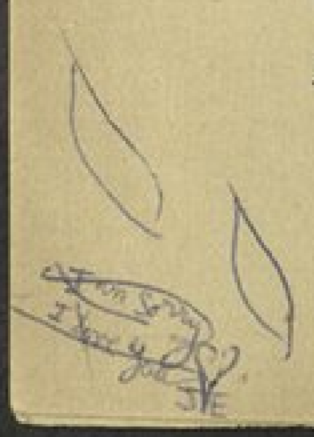
من عينيكِ تنبعث قوة سحرية هي زادي في الصباح والمساء
عندما تنفد فيّ قوة الجهاد انظر الى عينيكِ
عندما تضع الايام امامي حواجزها الهائلات انظر الى عينيكِ
من عينيكِ ارادتي ، وقوتي ، ووجودي ، وتجدّدي ، وعلة بقائي وسر حياتي

. . .

تفقد المرأة اباها ، وامها ، واخاها ، واختها . فتتألم نفسها وتبكي عيناها ولكن موت الولد يؤلمها جسدياً فتتوجع كمن فقئت عينه ، او بترت يده ، او شقت كبده

كان لي ملاكان ذهبيان

فنزل يوماً ملاك اسود كبير على بيتي ونظر بعينيه الناريتين الى احدهما وكما تكهرب الافاعي صغار الزغاليل فتأتي صاغرة الى افواهها ، كهربَ ملاك الموت ولدي فسار امامه صاغراً حزيناً



آه ما امرّهم عند ما يموتون !

آه لنظرات الحزن في عيونهم تقطع الاوصال والاكباد عند ما تعفّ شفاههم عن اطايب الحياة وتحول الى ظلمات الابدية

عند ما يصارعون قوّات الموت بكيانهم الضعيف فيختلجون ، و يئنّون ، ويحشرجون وهم لا يدرون ماذا يقطّعون

لمس الموت تمثالي الحي فاصبح بارداً

فاخذته الى صدري فهوى عني ومثّل لي جمود الموت فلم اخف الموت لاول مرة في حياتي . عانقته نفسي ساكنة مطمئنة ، وشعرت ان الموت قسم من الحياة و بقيت اتمرّغ في حزني هادئة خاشعة كانني اكتشفت في دقيقة كل اسرار الارض والسماء

واحتمل الموكب الصغير ، الجسم الصغير ضمن النعش الصغير ، ومشى به خلال اشجار السنديان فوقفت اتبعهم بنظري الى ان اصبحوا نقطاً سوداء كبيرة تحمل نقطة بيضاء

واراد ذويّ ان يحولوا مجرى افكاري بكلمات مألوفة فتألمت من نبرات اصواتهم البشرية التي قاطعت في نفسي اصوات الاجواق العلوية ! !

. . .

سكوت . بالله ايها الناس ، تقول الامومة !

انني والموت واحد ، فلا تفصلوني عن نفسي

الامومة شيء عظيم كهذا الوجود . الهيّ كالملاء الاعلى

في الامومة كل ما في الطبيعة من حرارة وندى وامطار وعواصف وصواعق وسكون واعصار

في الامومة ينابيع الحب والالم والسلوى واليأس والصبر الجميل !

كل مافي الحياة والموت من الام والى الام !

سكوت . سكوت . ايها الناس تقول الامومة

انا والموت واحد فلا تفصلوني عن نفسي ، ولا تحولوا بضجيجكم بيني وبين كياني

مي تتنهد

ميّ ابنة في الثامنة من عمرها ، ذات بشرة سمراء زاهية كسنابل القمح وخدين حمراوين بلون الشقيق ، وفم ورديّ عجيب في صغره نحيف لطيف ، حتى يحسب الناظر عن بعد الى ميّ ان هنالك حبة كرز حمراء في صفحة وجهها البيضاء

وحاجبا ميّ قوسان مشدودتان مقفلتان فوق انفها الصغير · وعيناها·· آه من عينيها الصغيرتين كلوزتين الكبيرتين كهذا الوجود ، بما في هذا الوجود من كواكب واقمار وازهار وانوار وشواهق و بحور ···

اما شعرها فاسود لمّاع متجعد غزير ، قصير الى ما فوق عنقها الصغير · ولو ترك شعر ميّ مذ ولدت لكان اليوم كالحبال المدلاة لقوة الحياة في اصوله · ولكن المقصّ لا يبرح يمر فوق تلك الذوابات الجميلة · ذلك لان قلب امّ ميّ — كقلوب الملايين من الشرقيات — ما كان مرّة طفلا بل حُمِلَ هموم الحياة في العاشرة وشاخ وذوى في العشرين · لذا تعمل ام ميّ على ابقاء ابنتها طفلةً طفلة الى ان ترتوي ضحكاً ولعباً وقفزاً وركضاً · فكانها بهذا تريد ان تعطيها كل ما حرمته هي في فجر الحياة · وهنالك عامل ثانٍ يحمل امّ ميّ على التمسك بتلك الطفولية كما بسعادة قريبة الزوال ··· نظرت يوماً

الى ثوب ميّ القصير فقالت لها ضاحكة كبرتِ ياولدي · اجابت :

– لا اريد ان اكبر

– ولماذا لا تريدين ان تكبري ؟

– ذلك لانني عندما اكبر لا اعود اجلس على ركبتيك ·

ومنذ ، زادت امُّ مي تعلقاً بالايام المسرعة في المسير واخذت تنظر بخوف الى الاثواب الآخذة بالقصر شهراً فشهراً · · · وتفكر بذعرٍ باليوم القريب « يوم تكف ميّ عن الجلوس على ركبتها »

وربما نظلم ام ميّ اذا قلنا انها مسيرة بالانانية · فهنالك عامل ثالث يحملها على ابقاء ابنتها طفلة ذلك ان دماغ مي اكبر من سنها فلو انها سلمت الى المعلمين والمعلمات كباقي الاولاد لكانت اليوم تقرأ شكسبير وسبنسر ولكانت قليلة النوم صفراء نحيلة غائرة العينين مقوسة الظهر بطيئة الحركة · ولكن ام ميّ تكره بكل قلبها الاطفال الحرمين · فميّ تدخل سريرها الساعة السابعة وكثيراً ما يقهرها سلطان النوم قبل ان تنتهي من صلاتها الصغيرة ، وهي طروبة ترنّ ضحكتها العالية في جوانب الدار كاجراس العيد · لعوبة لا تعرف الراحة الى ان يجيء اوان النوم · مي لا تقرأ شوقي ولا حافظ ولكنها تعرف اسماء شواهق وينابيع لبنان فتصف راس العين ونبع العسل ووادي العرائش وكاكبر الشعراء تتغزّل بالوان الشروق والغروب وقصف العاصفة وهدير البحر وهديل الحمام · · ·

· · ·

قصدت ان اصف مي وهي تتنهد فمالي استرسل واسترسل الى ان يمل المطالع ؟

ايها الكتّاب ! ما بالكم تكلمونا عن الاطفال . تقولُ الشيبة . كلمونا عن مسرات الحياة عن الحور المسترسلات الشعور المتجردات كتماثيل افروديت وعشتروت

ولكن الاطفال ايها الناس هم نصف الوجود . هم هذه التماثيل التي تعبدون فيها الشباب فاذا بان لكم الهرم الباكر انقلبتم يائسين

ايها الناس . من منكم يدخل الى نفسيَّة الاطفال فيعيش عمره مرتين ؟ من منكم يصور لنا حزن الاطفال وحب الاطفال وغيرة الاطفال ؟ تهملونهم فيشبون كما يشاؤون وعندما ياتي زمن الحصاد تجدون امامكم شيبة هرمة ، متجعدة ، ذاوية كاوراق الخريف ونخرة كاخشاب اكلها السوس

كان لوالدة مي صديقة لها ابنة تدعى هند ، فانتقلت محبة الامهات الى البنات وصارت هند تبكي لبكاء مي ومي تضحك لضحك هند . وكان في بيت مي خادمة تدعى مريم جاءتها امها يوماً زائرة . فدهشت مي الصغيرة واخذت تدور حول الزائرة تتفحص اسنانها وضفائرها الصناعية وثوبها الواسع . واستأنست فاصغت الى عبارات الحنان بين مريم وامها ولم تتمالك ان سالت هل « للكبار » امهات ؟ فاجيبت أنَّ لكل الناس امهات

ولم يأت المساء الا وفكرة الامومة تملأ دماغ مي الصغير فاتت وجلست على ركبتي امها وسألت :

— يا امي اين امك ؟

— ليس لي ام

— لي ام ولهند ام . ولمريم ام ولكل الناس امهات . وانت اين امك؟

— في السماء ياولدي

فحزنت مي الصغيرة ولمع في عينيها بريق ألم عميق فتنهدت وصرخت بصوت مرتجف . آه . . . ياامي لماذا انت بدون ام !! وللمرة الاولى بكت مي على امها ووحدة امها !

. . .

عندما اشتعلت الارض بالحرب الكونيةَ عُلِّمت مي ان تصلي في كل مساء وصباح هذه العبارة « يا يسوع الصغير ضع حدًّا لهذه الحرب ، اشفِ المرضى وارسل خبزاً للفقراء الصغار . »

وهجمت النائبات ومنها التيفوس فاصيبت ام هند وقضت في اسبوع وفي ذلك اليوم المشؤوم تنبهت مي لوقع الاقدام عَلَى السلالم وشاهدت الصندوق الخشبي وخلفه الصليب الكبير وجوق الكهنة يرنمون باصوات شجيةً، فصمتت صمتاً مهيباً كأن نفسها الصغيرة شعرت برهبة الموت . ولما وضعوها مساء في فراشها شبكت يديها على صدرها وقالت انها « زعلانة » من يسوع الصغير ولا تريد ان تصلّي لهُ

— ولماذا انت زعلانة ؟

— اما رأيتِ كيف انه أمات والدة هند ؟ من سيحبّ هند بعد اليوم؟

وتنهدت مي وارسل صدرها الصغير زفرة طويلة عميقة ولاول مرة في حياتها بكت على الناس ومصائب الناس !

كانت مي صغيرة عندما ارسل لها « يسوع الصغير » اختاً · من عساه يصف محبتها لذلك الكائن الضعيف · تلك المحبة الممزوجة بالشفقة والحنان والعطف والغيرة المحرقة القتالة ؟ من عساه يصف نفسها وقد اصبحت ساحة لمعترك العواطف المختلفة

هل صرخت الطفلة ؟ كانت مي تسرع وتقول بلغة الاطفال — احملوها ولاتتركوها تبكي · ارضعوها انها تموت من الجوع · ادفئوها انها باردة كالثلج لعلكم تظنون ان يسوع الصغير سيرسل لي كل يوم اختاً ؟

آه من قلب مي الصغير كيف كان يطفح بعواطف الاخوّة العذبة · ولكن تلك المحبة كانت مقرونة بغيرة قاتلة ظهرت بوادرها في عيني مي لان عيون الاطفال لا تعرف الكذب · هل نظرتم في عيني امرأةٍ ما صورة الامل الضائع والحياة الذاوية والحب البائس والشباب الباكي ! هكذا كانت نظرات مي يوم تصارعت المحبة والغيرة في فؤادها فهوى كيانها الصغير تحت اثقال الحب ·

ما كانت مي محبة لنفسها · فلم تؤذِ الطفل ولا سالت مرة انزاله عن صدر امه كما يفعل الصغار بل انسحبت بذلّ تاركة مكانها للكائن الجديد كانه صاحب الحق وكأنها لا شيء · ولم تمضِ ايام الا وقد غارت عيناها وذبل ورد خديها فكانت تنزوي وترسل التنهدات ثلاث ورباع الى ان كان احد الامساء فاقتربت ببطيء من امها وتغلغلت فى الملاآت الدافئة وكمن ضاق صدره عن وسع ما فيه باحت مي بسر عذابها المستقرّ في عينيها الذاويتين الجامدتين فسالت :

— اين امي انا

— انا امك

— والطفل اين امه ؟

— انا امه

— اذاً انتِ امه « هو » لا امي « انا »

وعبثاً تعبت الام في تفهيم مي انها ام للاثنين معاً فلم تكن لتصدّق بل كانت تبكي على الحب الضائع وتخبط في يأسها وتتنهّد وتقول :

— يا لذلّي ! ليس لي أمٌ . ليس لي أمٌ . .

تذكارات يتيمة

في الغد يحملونني الى بيت الرجل الغريب عني وعن عشيرتي وهو سيحملني بدوره الى ما وراء البحار البعيدة

منذ اسبوع اتى الكاهن الشيخ الذي احبني مثل اولاده طيلة فتوتي السوداء ، الدهماء ، كقلبي الهرم ونفسي القديمة

قال لي . ان ابي قد خطبني الى ن . س الرجل الذي عاد حديثاً من المهجر وزاد ان الفرق كبير بيني وبين خطيبي وانه قد ابان فظاعة الامر الى ابي وخالتي ولكنهما مصران لان للرجل ثروة كبيرة . ثم انهى حديثه قائلاً : يا ولدي سلمي امرك الى الله

لم يقل الرجل الصالح هذه الكلمات بصوت ارن كسائر الكهان الذين تعودوا ان يحملوا الى الفتيات احكام الاجتماع العرفية . قالها بصوت اجش حزين كأنه آتٍ من الاعماق البعيدة

ومنذ بلغت ارادة اوليائي اصبحت تلك المرأة الثعلبية لدنة الملمس كالحية تبسم لي حباً وتقول للناس ان فراقي امر من الموت واذ تكلمني تخفض صوتها كمن يكلم سيداً ، ذلك لان ثروة خطيبي ستقلبني من ابنة الزوج المكروهة الى محسنة محبوبة . فابي سيشتري بثمني داراً وزوجي سيحملني بعيداً حاملاً معي اخوي

هي اليوم دائبة لراحتي وتزييني . تأتي صباحاً فتفتح الباب بهدوء وتهمس في اذان اخوتي ان لا يعكروا سكوني كي انام

في هذه الساعات الباقية لي استحضر الى ذهني تذكارات الماضي فتبرز الرسوم حيةً وتمرّ امام عيني واضحة صحيحة كأنما لم تمرّ عليها السُنون ولم تطوها الايام . تلك الرسوم المرتكزة في اخفى خفايا ذاكرتي ، لا استعيدها الاّ والمرارة تملأُ قلبي وترجف شفتيّ . ! !

هذا البيتَ الذي سافارقه ابدياً كان لأُمي من ذويها . هنا ولدتْ وتزوجتْ وماتتْ عروساً بيضاء كالزنبقة البيضاء . اراها الان ماثلة امامي صورةً للمرأة الشرقيّة الغارقة في الاشغال الشاقة من الفجر الى الليل

تفيق فتوقد النار وتغسل الثياب او تعجن الدقيق ثم تهيئ فطور ابي وبينما هو يأكل تقف امامه بذلّ وخضوع واذ تطلب شيئاً من حاجات العيال ينفر فيلعن الحياة والزواج والاولاد ويخرج غاضباً فتعود هي الى تنظيف البيت وفي عينيها نظرات مظلمة وحول فمها ملامح المذلّة

ثم تذهب الى الموقد تحرّك القدر وتنقي الحبوب واذ تتناول الغذاء يبكي الرضيع فتجثو قرب السرير ثم يدخل ابي متعباً غاضباً فتقوم الى خدمته واذ ينام ترفو الثياب وتظل تعمل الى ساعة متأخرة . وكم استفقت في ليالي الشتاء الباردة فاذا بها قرب السرير تمسح دموعها الواحدة بعد الثانية

وداهمتها الحمّى وهي نحيلة ضئيلة ، تروح في البيت وتجيء كالخيال فلازمتُها اخدمها بقلبي الصغير المملوء خوفاً وحباً . ويوماً طلبتْ الكاهن الشيخ فدخل يحمل في يده كتاباً وكأساً فسرت الى زاوية تقودني روح خفيةً

وجثوت اضرع الى الله ان لا «يأُخذها» ويتركنا يتامى · والتفتُ فاذا بها مستوية على وساداتها ووجهها اصفر كالشمع ويد الكاهن فوق راسها وفمه يتمتم كلمات كبيرة غريبة ···

فاقتربتُ ولصقتُ بذلك الفراش واخذت يدها الباردة وقلبي الصغير يرقص في صدري فتململتْ ونظرت اليَّ بكل ما بقي فيها من الحياة وقالت لي : «عدني يا ولدي انك تهتمّين باخوتك من بعدي» ثم سالت من عينيها قطرات كبيرة فاختبأْت في صدرها اشهق واقول يا امي ! يا امي !

وجاءت جدتي وابي واناس كثيرون وعلا الصراخ حولي فحملني الكاهن الشيخ الى البستان وقال لي اشياء كثيرة منها انني اصبحت اماً لاخوتي

وهكذا طفرتُ ··· عبرتُ طور الفتوَّة وطور الشباب ودخلت — انا الولد اللّعوب الطروب — في موكب الامهات الرازحات تحت اثقال الحياة الشرقيَّة المرَّة

· · ·

بعد ايام بدأت نساء الحي تزحف تحت الظلام الى بيتنا وفي تلك الزاوية التي توسدها جسد امي الشمعيّ جلسنَ الى والدي وندَبن حظه ووحدته وخراب بيته ونصحنه ان يتزوج «حباً باولاده»

ولا ازالُ اذكر وجه ابي يوم تزين ولبسَ ثوباً جديداً وحذاء جديداً وذهب الى عروسه الجديدة ··· اذكر ذلك الوجه الضاحك لاول مرة ، وتلك النظرات — تلك النظرات التي ما ارسلت الى امي الا العبوسة كانت ترقص في محاجرها سروراً وحباً

ونظفوا البيت لاجل «العروس» واحضروا خادمة لطبخ الطعام لان «العروس» غير مجبرة ان تطبخ «لاولاده» واشتروا لها تحفاً واثواباً ثمينة لان ابي يجب ان يبذل كي ترضى به «وباولاده»

اما انا فكنت عبدة لفكرتي، تلك المتسلطة عليّ، المتملكة مني، الآمرة كل قطرة من دمي وكل ذرة من ذرات كياني . تلك الفكرة كانت شبح امي الضئيل، يسيرُ في البيت ضئيلاً، ويركعُ الى السرير ضئيلاً، ويجلس الى الموقد ضئيلاً، ويُلفُّ باكفانه ضئيلاً، وذارفاً تلك القطرات الكبيرة التي بللت وجهي ساعة النزع !!!

قومي يا هند الى اخوتك — كان صوت ابي يناديني في ليالي الشتاء الباردة آن يحضن الوالدون اولادهم وينام هؤلاء ملء جفونهم

ويبكي الطفل — طفلها ! — فيرتفع صوت ابي ثانية :

— تعالي يا هند هزّي سرير اخيك . فامشي والبرد يهزّ عظامي واسير الى تلك الغرفة واجلس الى السرير فيذهب ابي الى عروسه ويرتب الغطاء على كتفيها ثم ينام . . .

في تلك الساعات كنت ارى الشبح المحبوب جاثياً الى السرير والقطرات الكبيرة تنهمر من عينيه الحزينتين

. . . .

يا هند ! اوقدي النار . يا هند هيئي المائدة . يا هند امسحي حذاء ابيك . احملي الخبز الى الفرن . انشري الثياب . اجمعيها عن الحبال . اعملي

قهوة للزائرات · واحضري اركيله، اركيلتين يا هند! واذ اسير لاصدع بالاوامر كان صوتٌ يقول:

– الا تسعفك في البيت؟

فتجيب المرأة الثعلبية:

– تسعفني؟ تأملي اربعة اولاد عدا اولادي!

اربعة اولاد: عبارة كانت اصداؤها ترنّ مدى الايام في فم هذه المرأة وفي جوانب البيت وفي اعماق قلبي، الى ان اصبحنا ثلاثة اذ ماتت اختي التي من اجلها صرت اماً!

وفي يوم ثكلي كان وجه تلك المرأة يتجلّد ليخفي عن الناس امارات الفرح السرّي

كل هذه التذكارات تتسارع اليوم متراكضة وتبرز امامي واحدة، واحدة، واشدها ايلاماً تذكار ذلك اليوم اذ ضربتني هذه المرأة للمرة الاولى، قالت يا هند اذهبي الى امّ الياس واحضري لنا الحليب · نظرت من الباب الى السواد المنتشر خارجاً وارتجف قلبي وقلت «اخاف» اجابت: – افٍّ لهذه التربية الناقصة! يجب ان تكوني شجاعة · اذهبي!

ذهبت تحت الظلام في الطريق المحجرة المؤدية الى البيت القائم في اطراف القرية· كنت اسير فترنّ الحجارة تحت قدمي فاحسب ان رجلاً يسير ورائي واسرع فيزداد صراخ الحجارة ويصل الى مسمعي كقرع الطبول · تابعت السير الى ان وصلت الى الكنيسة القائمة بجانب السنديانة الكبرى، الناشرة اغصانها فوق حجرة امي فرميت بنفسي الى ذلك الحائط

الذي ضم عظامها واخذت ابكي واناديه يا امي ! يا امي !

وبينما انا كذلك ارتفع من الوادي نباح كلاب كثيرة فانتبهت انني بين المدافن ، وتراءت لي صور الهياكل البشرية تعلوها الجماجم المخيفة فصرخت صوتاً رددته الاودية الوفاً وهمتُ وقد نسيت الحليب والوعاء

ووصلت وخالتي تنتظرني ولما رأت انني لا احمل شيئاً انهالت عليَّ تصفعني ثم دفعتني الى غرفةٍ واقفلت عليَّ الباب

فارتميت على البلاط البارد وجسدي ينتفض وكلي شوق الى الارتماء على صدر حنون دافئ . . .

. . . .

ايها الرجل الكريم . يا من نشلتني من جحيمي وبدل ان يكون اجرك عبوديتي الدائمة فتحت يديك وملأت بيت هذه المرأة خيراً وبركة

لعلك بهذا تشتري شبابي وفتوّتي ! انني عجوز ايها الرجل

عجوز قديمة هرِمة . وكيف تكون شابة تلك التي ما بسمت للمحبة ولا للفتوة ولا للشباب ؟

الغريب

جلس الغريب اليَّ كما الى نفس شقيقة
فجاشَ سرُّه في صدره
وتصاعدت مرارتهُ الى شفتيه
وهمَّ ان يلفظ قلبهُ من فيه ويرميه في كفٍّ رفيقة
وهمَّ ان يريني آثار النخاسة على وجنتيه
وهمَّ ان يريني الاصفاد الضاغطة علَى يديه ورجليه
ولكنه تراجع ، ووجم ، فارجع سره الى صدره وردَّ مرارتهُ الى كبده
واخفى اصفاده تحت اثوابه كي لا ارى وثائق انكساره لان الاقرار
بالخيبة يؤلم نفوس الرجال
وسكت الغريب وطال سكوته
فحلّق فكري في جواء الذكرى وتمثلته في ايام فتوتهِ. تمثلته يوم كان ولداً
طياراً ، ومرَّت حياته في خيالي ، خضراء كالربيع ، رويةً كندى الصباح ،
سريَّةً كحديث البدر ، عذبة كظلمة الليالي ، وغضةً ونضرة كبشرة الاطفال
ثم نهض وسلَّم ومضى ولمَّا سار في منعطف السبيل همس لنفسه :
« اسكت ياقلبي حتى الممات »

. . .

وسافر الغريب بعيداً لمكافحة الايام،والايام تيار عنيف ، اهوج ،يسحب الضعفاء ويكفنهم بامواجه ذات الزبد ثم يرميهم في بحر الظلمات ! والحياة مقصف هيأته ايدي الغواني وصفت على موائده أكواب الغبطة واثمار الهناء ووقفت اجواقهن على بابه تستقبل الداخلين ، فمن كان عابساً كئيباً صُفِعَ وطرح خارجاً

لان الكآبة وباء يهرب منه الآكلون ، والراقصون ، والشاربون

سافر الغريب ، وهناك بين جماهير الأغراب عصف في قلبه شوق الى صديق يحن ويؤاسي فكتب اليَّ يقول :

« في ساعة تلعب بي امواج الحياة القاهرة افتش على يد لطيفة امرُّها على جبيني الملتهب — فدعيني ابوح بسرّ يغالبني واغالبه ، دعيني اقول لك انني شقي اكثر مما تظنين يا اخت المجاهدين في هذه الحياة !

انها نزوة من قلب مكلوم اغتفريها واستري فالشكوى لغير الله ذلّ »

. . .

ورجع الغريب وجلس اليَّ وكأنّ صرخته تلك فككت قيود كبريائه فباح بسرّ عذابه ، وسرّ نحوله ، وسرّ خيبته ،وسرّ حظه الاعمى ! لان الحظّ اللامع اليف الفكر اللامع وانّى للفكر ان ينوّرَ وقد اطبقت عليه ظلمات الحرمان ، وتأكّلته وساوس الغيرة والشك ، وعشّشَ فيه ، في الثنايا منه ، والحنايا والزوايا شعور اوحد ، لا يبرح يطنّ ويرنّ :

انني منبوذ ، انني مكروه ، انني غريب

. . .

انا غريب · قال الغريب :

غريب انا في عملي ، اباشره ونفسي تنقبض ، وقواي تخور ، وفكري تتضاءل

العمل يحبّ اذا كان للعامل غاية في الحياة ، اذا كان يحمل نتائج عمله ويضعها بين يدي رفيقةٍ محبةٍ قنوعة ، تعرف معنى الاتعاب والجهود ، وتقدّر ان العرق المتصبّب من جبين الرفيق هي دماء كل قطرة منها يومٌ من ايام الشباب تكرُّ ولا تعود

الإنتاج — مهما كان حقيراً — يحَبُّ ، اذا رأت فيه الرفيقة فكرة محبٍّ يجابهُ عنها المصاعب ويحميها من ذل السوآل

ولكن ! عند ما احمل الى رفيقتي ثمار عملي فتنظر اليه من علو كبريائها وتقول انه قليل لا يشفي غليلاً وتعدّد ما في البيت من الفراغ وما يلزم لخزائنها حتى تمتلىء ، وتذكر بحرقة ثوب فلانة ومائدة فلان · آه كم تنكمش نفسي على اوجاعها وكم تتسابق الى قلبي شواعر الذلّ ، والصغر ، والمسكنة · وكم تنتحب روحي ، تلك التي ترى الحياة جواً ، حراً ، فسيحاً ، نيراً ، يطير فيه الزوجان إلفين ، إثنين ، مغتسلين بامواج النور قبل ان تتوارى الانوار ، وبندى الصباح قبل ان تظلم الأصباح

آه ! كيف تنتحب روحي ، تلك التي ترى البيت عشاً تسكن اليه القلوب قد اصبح ميداناً للمفاخرة الحمقاء وحب الظهور السخيف !

. . .

وفي بيتي انا غريب · عندما يتراكض الرجال مساءً الى اوكارهم اسحب

جسدي المضنى الى جحيمي فاراه متلألئاً بالانوار مكتظاً بالزائرين والزائرات واری رفيقتي تميس بالاثواب الغالية كامبراطورة في عزّها وسلطانها ٠ والرجال من حولها يتوددّون ويتحببون ويصغون الى صوتها تنغمهُ وتنعّمه كهديل الحمام، وارى الخدم — كما في بيوت الكبراء — يطوفون بالاكواب والاقداح فافكّر كيف تهدر دماءي ثمناً للمخفخة الفارغة والانتفاش الفاضح

ويذهب الزوار فادنو منها لاطرح اتعابي عند قدميها الصغيرتين لاسند رأسي الى قلبها واسمع — مرة اخرى — لحن الحياة قبل ان تتلاشى فينا الحياة ٠ ولكن ! سرعان ما ينكمش جبينها ، وتظلم عيناها ، ويقسو فمها ويلبس وجهها — الذي كان منذ برهة انيساً رحباً ، بسّاماً — قناع البرودة والجفاف

هذا البيت ! أفٍ له ما اظلم اسوداده ! وتعساً لي عند ما اجيل عينيّ فيهِ فتتردد من جوانبهِ حكايات شقائي وبؤسي

هذه الموائد لا تصف « لي» وهذه الاكواب لا تملأ زهوراً لترتاح اليها روحي، وهذه الوسائد التي تتفنن رفيقتي في صنعها من حرائر مفضضة ومذهبة لم تصنع لاسند اليها اضلاعي التعبة ، وهذه الانوار المغطاة بالوان تنثر على الجلوس اسارير الليل العميقة، هذه الانوار لم تزيّن لتحمل همس الليالي الى قلبي !

هذا البيت ! أفٍ لهذا البيت

حلمته جنة انعم فيها بملك كريم ٠ فاذا هو جحيم ٠ واذا ملاكي امرأة دعيةٌ ٠ خداعة تلبس لكل ساعة وجهاً ٠ وكذّابة ٠٠٠ لانها تتمتع بمال رجل لا تحبه ولا تحتمل قربه

. . .

وفي حبي انا غريب · عبثاً انظر في عينها كي ارَ ذلك القبس القديم· يوم حملتها من خدر امها في ليلة باردة· ونزعت ازهار عرسها البيضاء واخذت قدميها الباردتين بين كفيَّ ادفئهما بحرِّ انفاسي

عبثاً افتش عن قبس لمع في عينيها ساعة همست في اذني انها تحبني وانها سعيدة

سرعان ما حلَّق الحب بعيداً · سرعان ما اخذت مكاني مشاغل الحياة العالمية العوجاء · فالعطور ، والاثواب ، والقبعات ، حتى والاحذية — اقرب اليها مني · ولكل من الرجال اسبقية والمعيَّة وافضليَّة ، هذا نبيل ، وهذا موسيقي ، وهذا شاعر · ذاك يتكلم ثلاث لغات ، وذاك له سيارة ، وهؤلاء يلعبون البوكر لعب «الكبار» واولئك رجال صالونات · وهذان يرقصان بلباقة ورشاقة

وانا وحدي لا افضلية لي أُغبط عليها ولا مزية أُحب من اجلها · ان تكلمت ظهرت على وجهها علامات (العصبيَّة) وان اعربت عن رأيي اسرعت للدفاع عن ضده وان اخذت يدها بيدي اشعر انها تتقلص وتقسو وان رفعتها الى شفتيَّ نكصت وتباعدت بحركة جفاف ونفور فاشعر بسمّ البغضاء يتمشى في دمي واشعر انني اذلُّ من عبد واحقر من دودة تلصق بالتراب

· · ·

انتهى الغريب من انشودة غربتهِ ثم ضحك ضحكة صفراء لانه رجل والرجال لا يبكون ··

ونهض . وسلّمَ . ومضى . ولما صار في منعطف السبيل همس لنفسهِ :

« اصبر ياقلبي حتى الممات »

. . .

لماذا يعيش هذان الغريبان معاً ؟

ولماذا لا يُطرَد هذا الغريب فيأوي الى مغارة جرداء يفترش غبراءها ويأتلف مع حجارتها واصلادها

لماذا ؟؟؟

لماذا لا تتزوج هذه المرأة اكواب العطور وصناديق القبعات والاحذية ؟

لماذا لا تلحق بهؤلاء الذين تجلس اليهم وكلها اصغاء ، وعطف ، ومحبة ؟؟ . .

ولماذا تحتمل طول حياتها قرب رجل تنفر منه كل حاسة من حواسها وكل نقطة من دمائها ، وكل ذرة من ذراتها ؟

لماذا ؟؟؟

لماذا ؟ ؟ ؟

الغريبان

كانوا يدعونها قبل زواجها « مس دجاك » لانها ابنة المتمول سليم يعقوب الذي هاجر بزوجه وابنته الى مدينة مانشستر وتوطّن فيها

كانت مزيجاً جميلاً من تربية متينة اخذتها عن المحيط السكسوني ، وذكاء لبناني حاد تجمع فيها وتراكم ثم ظهر قوياً برّاقاً — هكذا تتجمَّع عوامل الوراثة وتتراكم على توالي الدهور ثم يأتي يوم — يومَ تتكامل الشروط وتتوفر الاسباب ،فتظهر بارزة ، واضحة ،صارخة انا ماضيكم المندثر وتاريخكم المدفون في ظلمات العدم

قلت انها جاءت مزيجاً جميلاً ؟ اظن ان كلمة (جميل) لا تكفي لتصوير كائن بشري احتكر لنفسه كل المزايا التي اتفقت البشرية على نعتها (بالمثلى) فهناك تكوين متناسق لا عيب فيه ، بخطوط هي اقرب الى التماثيل منها الى الاجسام البشرية وشباب ندي كاثمار الصباح ، وحياة متفجرة نابضة بالحنو والمحبة والانعطاف ، ونفس وديعة هي الطفولة طواعيةً وليانًا

. . . .

ما كانت بالغربية المطلقة ، بل شرقية على الاكثر ، كانت تتكلم لغة اجدادها بلهجة جبليةٍ بحتة حتى يخال السامع انها قادمة حديثاً من كسروان وتحترم عادات بلادها كما نحترم العقيدة التي تعودنا ان نجلها ولو شككنا بافضليّتها

لم تنزل اللغة العربية عليها وحياً، فهي تعلمتها وأشربت حبها في زياراتها السنوية الى لبنان، لان اباها – رغم البحور الفاصلة – كان يرسلها كل سنة الى كسروان فتقضي الصيف متنقلة بين ميروبا وغسطا وريفون وفيترون

ولكن نفسها الطمّاحة كانت قد تشبّعت بالافكار العصرية والنهضة الفكرية الجديدة، فاصبحت، وهي بنت الشرق الصميمة، تتصرّف وتتكلم وتفتكر، وتكتب بعقليةٍ غربية صرفة · وتميل – رغماً عنها – الى كل ما هو غربي

كانت لم تزل مس « دجاك » يوم زارت باريس فتعرفت في بيت السفير العثماني الى شاب مصري سمحت له ثروة ابيه ان يسكن قصراً هو متحف بما حوى من النفائس الشرقية والغربية، وان يجمع حوله حلقة من اهل الادب والفن، وان يدرس فن النحت ويبرع فيه الى ان تعرض تماثيله في المتاحف الى جنب تماثيل مشاهير العصر

نبوغ، وعلم، وفن، وفكر واسع منطلق، وتلبُّس تام بكل جديد بهذه الصفات تسلّطَ هذا الرجل على حياتها فما لبثت ان خلعت اسمها القديم فاخذت اسمه وصارت مدام غنّام

امّا ايام خطبتها فمرّت كحلم ذهبي جميل · · · · واما ايام زواجها الاولى فمرّت كالبرق لاتكاد ترى لمعانه حتى يختفي

كانت تزور خطيبها في قصره · فتدخل القاعة الكبيرة الملأى بجميل المرسوم والمنحوت وتتيه بين تماثيل الرخام الصامت · فيأتي ويأخذ يدها الى مقعد كبير فرش بالوسائد الجميلة وهنالك يجلس عند قدميها ويقول لها –

فيما يقول – انها اجمل من كل تمثال صنعه النحات

كان يهمس بلغة عذبة ما سمعتها في كسروان، ولا في صالون امها، ولا في قاعة التدريس .. كانت لغته – حيناً – تشابه هينمة النسيم، وابتسامة الطفل، وانغام الموسيقى في الكنيسة يوم آلام يسوع وخرير المياه في منعطفات لبنان – وحيناً – كان حبه يقصف كالرعد ويزأر كالعاصفة فيهزّ روحها هزة عذبة كالحياة ومخيفة كالهاوية

. . . .

وتزوجت فاصبحت آلة لا ادراك لها ولا بصر ولا بصيرة – كل ذاتيتها الطيّبة غرقت في ذاتية الرجل الذي اتخذته رفيقاً من بين الكثيرين ... استعارت لهجته لتتكلّم، وفكره لتعبِّر عن رأي هو رأيه ابداً

كانت تفيق من نومها لتحضير فطوره بيديها، وتلبس لتروق في عينه، وتتنزه في الهواء المطلق لاكتساب لون يزيدها رواءً، وتنام لتاخذ قوة تساعدها على الابداع، لانها – في سبيل ارضائه – انقطعت الى الفن وصارت من كبار الرسامين

. . . .

ونزل عن عينيها يوماً حجاب التساهل ونظرت الى نفسها والى الحقائق حولها فاذا بها منفردة متروكة

ذهب الحلم الذهبي، ومرّ الحبُّ كالبرق الخاطف لا تكاد تشعر به حتى يختفي .. وتلك القبلات المذيبة، وتلك الانفاس الحارة، وتلك اللغة السماوية كله ذهب وبقي ذاهباً .....

لِمَ هذا الجفاء ؟ لِمَ هذا السكوت القاتل والبرودة الخرساء والنظرات المظلمة التي تقع على كل شيء وتهتم بكل شيء — الأ بها — عبثاً جرَّبت ان تعلم فلم تعلم سوى ان الرجل الذي اختارته رفيقاً وصديقاً وركناً تستند اليه نبذها في زاوية بيته كاحدى الاثريّات التي جاء بها من الشرق

ويوماً عرضت لها حاجة فدخلت الى غرفة التماثيل — وكانت قد هجرتها منذ شهور — فرأته جالساً الى اقدام فتاة في الخامسة عشرة من عمرها وسمعته يقول « انت اجمل من كل التماثيل التي صنعها النحّات »

فهربت مسرعة الى غرفتها واخذت رأسها بين يديها وبكت عمرها الضائع وشبابها المكروه

آه ما ابرد تلك الجدران واسخف ما عليها من بدائع الفن وثمين الاقمشة كم هي غريبة وسط تلك التحف الغالية، وكم هي موحشة تلك القاعات العديدة تمرُّ فيها امام المرآات الكبيرة فترجع اليها خيال وحدتها وانفرادها الوجيع ·

ومضت الايام والشهور والسنون وذلك البيت يضم غريبين يجتمعان حيناً على المائدة وحيناً في زيارة لازمة لتثبيت المركز الاجتماعي

كل ما في الحياة كان قريباً منه ، وهي، هي كانت البعيدة البعيدة — كل الغريبات كنَّ اليفات حزنهِ وانسه · كان رفيقاً لكلهنَّ وحبيباً لكثيرات منهنَّ · امامهنَّ كانت تحل عقدة لسانه — وهو المحادث الخلاَّب — فيتكلم الساعات في الفلسفة والعلم ، والفن ، والسياسة ، وتدبير المنزل وكل شيء

اما ابنهما الوحيد ·· فكبر غريباً بين غريبين

· · · ·

من رآها وقد جمد شعورها وتصخَّر قلبها وانقلبت حياتها المشبعة بالرواء والشباب الى حياة هرمة ، صماء ، خرساء ؟

تركت الزينات النسائية كلها — ولمن عساها ان تتزين ؟ — وهجرت «الصالونات» وما فيها من الزهو والظهور — ولمن عساها ان تظهر ومن يهمها بعد في هذا الوجود ؟ ما عساه ان يبهج قلبها الدفين الحيّ ؟ مدنية الغرب ؟ انها تعرفها وتعرف ما فيها من الدواهي !! عوالم الفن الواسعة ؟ كل ما في الفن من جمال وتعبير ليس سوى رموز لما في نفوسنا من العواطف المختلفة . اية عاطفة بقيت لها حتى ترسمها بالخطوط والالوان ؟ آيات البلاغة منزلة سطورا ؟ كم لعنت هذه الايات وكم تمنت لو بقيت جاهلة وتزوجت برجل جاهل

لِمَ هاجر ابوها الى الغرب ولِمَ لم تبقَ فلاحة تسوق الابقار وتأكل رغيفها مع حفنة من البقول ؟ لماذا اقرأوها كتب الغربيين فلمست فيها الف الف فكرة والف الف عاطفة جديدة . صوروا لها القلوب البشرية مسيرة بالمحبة والالفة ولما ان وضعت يديها عَلَى القلب الوحيد الذي اختارته من بين القلوب اذا بيديها فارغتين ، واذا بالحياة ، كل الحياة ، صورة تجسَّدت فيها العدمية واللاوجود

انكمشت نفسها فاصبحت كهذا البحر لا يدرك ما فيه — واليوم هي طلسم من الطلاسم لا يحلّه سحر ، هي الحلقة المفقودة بين الشباب والهرم ، والحب والبغض ، والحياة والموت

حكاية هيفاء الديرانيَّة

هي في الخامسة والثلاثين من عمرها ، ذات عنق بضّ جميل وذراعين مستديرتين وعضلات مريرة تتجلى فيها القوة الجبلية ورواء الشباب الغض ، برّاقة العينين مطبوعة الذقن ذات شفاه سميكة بسأمة عن اسنان صحيحة لمّاعة

اسمها هيفاء ، وهو من الاسماء البدوية الجميلة اخذه اللبنانيون فيما اخذوه عن اخوانهم العرب ،ولم ينطبق اسم على مسمّى كما انطبق اسم هيفاء على قدّها الاهيف

غريبة هي الاسماء في لبنان ،تقف على نبع من ينابيعه فتسمع امرأة تنادي اولادها باسماء عربية صميمة ياهيفاء ! ياسعاد ! او يا اسد ويا ضرغام : واخرى تصرخ يا بشير ياروكز يا اغناطيوس يا انور ! صفحات تمرّ امام فكرنا فنذكر لبنان الاقطاعي ولبنان المتديّن ٠٠٠ ثم لبنان المتحمس لحرية الاتراك ودستورهم

وقد يؤخذ الغريب اذا سمع على التوالي اسماء ادمون وروبرت وفكتور تلفظها الفلاحات بلهجة بقاعية او شمالية او شوفية فيقال له هذا اثر من مؤثرات الهجرة او دليل من ادلة امتداد النفوذ الاوروبي على سواحل الشرق الادنى ولكن ما قولكم بذلك المهاجر الذي اعجب بمبادىء رئيس الولايات المتحدة فسمى ابنه روزفلت او بذلك الارثوذكسي الذي يعدّ بين ابنائه اسم كروباتكين

صدقوا انني لا امزح وليس فيما اقوله شيء من الغلو البديعي فالحادثة حقيقية والولد لا يزال حياً يرزق واسمه ان لم يكن كروباتكين فهو اسم يماثله من اسماء العيال الروسية الشهيرة. رومانوف مثلاً او سازانوف او ماكاروف اختاروا ما تشاؤون

الى اين يجرّنا الاستطراد ؟ لنعد الى هيفاء الديرّية او الديرانية كما كانوا يلقبونها في محلة الكلية الاميركية حيث خدمت سيدات بيوت عديدة ولم يكن تنقُّلها ليشينها في نظر المتأمركات اللائي تعبَّدن الى السكسون والسكسونية ومن المعلوم ان ركنها الركين هو الثبات . ثم الثبات. ثم الثبات .. ولقد غفرنَ للديرانية هذه الهفوة لنشاطها العجيب وشغلها النظيف المتقن وقوتها البدنية الهائلة حتى كان يقال عنها انها تحمل اثقال البيت على ظهرها لذلك اجتهدت سيداتها العديدات في سبيل ارضائها والاحتفاظ بها

مسكينة هيفاء ! ياليتهم يعلمون سبب تقلبها و يعرفون ان في ذلك الجسم الجبّار الذي لا يعرف التعب قلباً نسائياً تأكله الهمّ فاصبح لا يسكن يوماً حتى يستفزّه القهر اشهراً واعواماً . فهيفاء تحمل همّ قلبها الاخرس وتتنقّل به من بيوت اسيادها في بيروت الى بيتها القديم المتداعي في القرية وبعد ان تشبع نواحاً وبكاء على حياتها المبتورة يحملها الضجر الى المدينة فتمكث شهرين ثم يعود بها شوق الاستطلاع الى القرية لعلّ من قادم من تلك البلاد النائية لعلّ من رسالةٍ تنتظرها في بيت الكاهن الشيخ ؟ .. وهكذا على توالي الايام تمرُّ السنون وهيفاء لا تسلو ولن تسلو

قلب فقيرة وحكاية فقيرة ! نعم للفقيرات قلوبٌ — كما لذوات القصور —

تهيم وتشتاق وتتفجع وتلتاع وتحنّ وتئن... كذلك لهنّ حكايات تبكي الاصلاد لو كان لها شعور ولكنها حكايات مهملة منسية ولعلّ الفقيرات من هذه الوجهة اقلّ شقاء من ذوات الحياة المبتورة اللائي يتسلى بهن الناس في سهراتهم فيسردون وقائعهنّ ويضربون بهنّ الامثال وبعد ان يشبعوهنّ صفعاً وجلداً وصلباً يعودون فيجودون عليهنّ بشيء من فضلات الشفقة كما يفعل الصبية الاشرار باعمى مسكين اذ ينهالون عليه ثم يطرحون على اقدامه شظايا عكازه المحطمة......

هيفاء أمِّية لا تعرف سبك الالفاظ ولا تجسيم المصيبة لانها لم تدخل الى ساحة الحياة عن طريق الروايات العصرية حيث العواطف المشتبكة والاميال المتطاحنة

انها جاهلة ولكن ما ابلغها عندما تصف وحدتها، وعذابها، وشوقها الى من يحميها، وحنينها الى ولد يدرج في الدار، وخوفها من الهرم الموحش، يوم تلزم البيت المظلم حيث لا نار تدفئ ولا قلب يحنو ولا رفيق تستند اليه ولا ابنة تعطف ولا احفاد يمرحون ويلعبون ويضحكون

كم هي شديدة التعلق باولاد اسيادها وكم تقبّلهم وتدغدغهم فيطربون وترن اصوات سرورهم في جوانب المنزل. يجلسون مساء الى دروسهم فتأتي وتجلس القرفصاء وتبدأ بشغل الشال الصوف الطويل فيكفوّن عن الدرس ويضرعون اليها «دخيلك ياهيفاء احكي لنا حكاية» فتضع شغلها الى جانب وتاخذ بقصّ حكايات حسن الشاطر والسبع العجائز والاربعين لصاً وابنة السلطان

قيل لها يوماً ياهيفاء احكي لي حكاية

— حكاية من يا ستي؟

— حكايتك انت ياهيفاء

— ...

— ما بالكِ احكي فاشاركك في همك

واخذت تلك المرأة الضحوك تتكلم عن ماضيها وتصف خدمتها في بيروت ثم موت امها ورجوعها الى البيت ثم تعرّفها الى بطرس ابن حنا — مختار الضيعة — وتعلقه بها وغضب ابيه وامهِ وكل اهله واصراره على الزواج بها رغم (الكبير والصغير) كانت تتكلم وتضحك اذ تذكر مروره امام البيت واغانيه الجبليّة وقد تضمنت ما يريد افهامها اياه . ولجهله الكتابة كانا يتفقان على طريقة للتفاهم فصليب واحد على الحائط كان يعني ان تلاقيه الى العين، وصليبان الى الفرن، وثلاثة الى الكنيسة، وهكذا ...

هنا اغربت هيفاء في الضحك فلمعت عيناها واستدارت الغمزة في ذقنها وامتلأ البيت برنين طربها

ثم تكلمت عن هربه من بيت ابيه وارساله اربعة من (الجدعان) لاختطافها في (ليلة ما فيها ضوء قمر) وامتناع الكاهن عن تكليلها وانقسام القرية الى حزبين وفوزها في نهاية الامر بمداخلة المطران

— اذاً لماذا هجرك بعد كل هذا التعلق؟

— لم يكن لنا بيت وقد حرمه ابوه فبقينا في بيت ابي ولكن اهله ما زالوا يضمرون لي الشرّ فتجمهروا عليه وزينوا له السفر الى اميركا حتى ينتقموا مني

وكان قد ضجر من قلة الشغل فذهب وترك لي ابناً صغيراً بعد ان حلف لي امام (الايقونة) انه حال وصوله يرسل لي اجرة الطريق

هنا هبط صوت هيفاء الى قرار واطيء كئيب فكانت دموعها تتدحرج ببطء على خديها فتمسحها بطرف ثوبها وتتابع الحديث :

لم يتوفق في اول الامر فبقيت انتظر في القرية وانا اغسل لهذا واخبز لذاك واشتغل حيناً في معمل الحرير وحيناً في موسم القزّ الى ان جاءت الحرب فتصالحت مع اهله وسلمتهم ابني وذهبت الى حوران وبدأت اشتغل في الحقول وارسل لهم ما احصّله كي يطعموا لي الولد ... ولكنهم اكلوا اتعابي واماتوا ابني جوعاً

وصلت هيفاء الى هذه المرحلة من الحديث وشفتاها ترتجفان وصدرها يرتفع ويهبط ودموعها تتسابق واوتار عنقها تتضخم والكلمات تخرج من فمها متقطعة متهدجة

— آه لا اريد شيئاً منك يا ربي والهي الا ان ارى بطرس مرة واحدة فاحكي له قصة عذابي ثم اموت

— لماذا لا تتبعينه ياهيفاء ؟

— كلما قصدت ان اسافر كان يأتيني منه مكتوب انه سيحضر ومنذ سنتين نقل من البلد الذي كان فيه وذهب الى بلد يبعد عن ذاك بالبر مسافة عشرين يوماً ، ثم انقطعت اخباره ...

— بالله يا هيفاء كفاك تبكين

— دعوني ابكي .. دعوني اطقّ . كيف انساه ومحبته في قلبي حتى انزل

الى القبر · ياليتني متُّ قبل ان ذهب وترك في قلبي هذه الحسرة

. . . .

منذ سنة اتى رجل من المهجر ولما سئل عن زوج هيفاء قال انه متزوج منذ سنين وله عدة اولاد

اما هيفاء فلا تزال تخدم من يعولها بامانة وصدق ونشاط عديمي النظير · في كل مساء تركع امام ايقونة يسوع فتصلي عن روح ابنها الطفل التقي ومن اجل رجوع زوجها عدة مسابح ··· واحدة لقلب يسوع · وواحدة لمار فرنسيس · واثنتين لأُم الاله · وفي اكثر الليالي تنتبه سيدتها ليلاً على انين وتنهد عميقين فتنهض اليها وتهزها في فراشها قائلة :

— ياهيفاء ياهيفاء ما بك يا بنتي ؟

فتفتح هيفاء الجبارة — المرأة التي تحمل البيت على ظهرها — عينيها السوداوين ، وتزيل بيدها القوية شعرها الفحمي المسترسل على خديها العندميين وتقول :

— لا شيء ··· لا شيء ··· تعبانة ياستي

اجراس العيد

١

سبحي ايتها النواقيس الابدية ولتجاوب رنينك في كل المنعطفات وفي كل الوديان

هللي في كل مدينة وقرية ومزرعة ، على كل مرتفع وعلى كل اكمة !

سبحي ! فصوتك حلوٌ لذيذ ! من هذه الارض حيث سمع صوتك لاول مرة انبعثت فكرة العبادة والالوهية ، ومن معاطف هذه الوديان ارتفع قديماً الفكر البشري مفتشاً على « يهوَه » العظيم

هللي ايتها النواقيس فرنينك ابداً طليٌّ جديد ، وقديم قديم يفاخرُ العالم بالمجد والقدميَّة

ذكرينا ايتها النواقيس بتلك الايام الخوالي ، ايام البساطة والهناء والعيش الرغيد ايام كان الشعب يجتمع في باحات المعابد حاملاً الى الاله باكورة الاثمار والازهار · ذكرينا بايام لعب الاولاد الانقياء ورقص الشبان الاقوياء ونصائح الشيوخ والحكماء

اهتفي ايتها النواقيس · واطمسي برنينك عربدة السكارى وانين المرضى وضجيج المفسدين · اعيدي علينا ذكرى الدهور الماضيات يوم كانت

الملوك تترنم (بزيت يبهج الوجه وبخبز يشدّد قلب الانسان) ويوم كانت الارامل والايتام تسابق الفجر الى الحقول وتجمع كفايتها مما « فرضته الشريعة على الحصّادين »

. . .

ذكرينا ايتها النواقيس بتلك الايام السود والصحائف السود ، لقد نسينا وما اكثر ما ينسى الانسان ! ذكرينا بايام كان لرنينك دويّ اصم كالهاوية وبارد كالموت ! يوم كانت حشرجة المائتين ولعنات المصلوبين تقطع انينك فتسمعنا صوت مناحة لبنان يبكي خلف الجنازة الكبرى

ذكرينا بالعيد يتلو العيدوالشعب يدخل الكنائس منكّس الراس ويخرج منكسر القلب والنفس ، وكافراً لان الجوع كافر

ذكرينا بهم كلهم ، بالمنفيين والمصلوبين ، بالجائعين والمضطَهَدين ! ذكرينا بهم قبل ان ننسى لان على جماجمهم وعظامهم قام الوطن الجديد . ولان استشهادهم فتح لنا باباً للمطالبة بالحق . ولان بانينهم — بانين مئة وثمانين الفاً — كُتِب لنا صك ثمين نحمله اليوم وفي كل يوم وبعد مئة سنة وبعد مئات السنين فتنفتح امامنا الابواب الموصدة والقلوب العمياء الصماء . . . .

ذكّرينا بهم . بأثر واحد يقام لهم . بتمثال واحد ، بنصب واحد يرفع اكراماً لمن باستشهادهم بسَم الامل في وجه المتفائلين وعاش الرجاء في صدور الاحرار

. . .



هلّي يا اجراس العيد ، اهتفي عالياً ، وسبّحي ملياً ، وليتعالَ صداكِ من اقصى هذه الجبال الى اقصاها ، حتى تدوي به اعماق المغاور واجواف الكهوف ..

هلّي ايتها النواقيس ، بهدوء متقطع ، او بحدّة متسارعة فصوتكِ ابداً حلو لذيذ ، وما رنينك سوى عاطفة الانسان القديم يسحب ضعفهُ ويحتمي في ظل الاله الكريم

هلّي ايتها الاجراس مساءً وليلاً وباكراً سحراً ... شاركي المؤذنين المقيمين — مثلك — في القباب ، والصارخين — مثلك — بالناس الى طرح اثقالهم على اقدام الرحمن الرحيم

امزجي رنينك بنشيدهم الوقور المهيب ، فلعلّ اصواتنا المتنافرة على الارض تتقارب وتتحد فوق الضباب وتعود الينا برداً وسلاماً

. . .

اسكتي يا اصوات الانكسار والهوان

في قلوب الاسرى والعبدان ..

اسكتي في قلوب الامم الذليلة ، المقيّدة باطواق النحاس وسلاسل الحديد الامم العديدة السائرة كقطعان الابل وراء ارادة الفرد المنتصر! الامم المستعبدة لجهلها ولمعرفة الغريب

اسكتي يا اصوات الذل والهوان

في قلوب الاسرى والعبدان

. . .

اخفتي يا اصوات اليأس في قلوب العميان والمرضى والمسجونين . الأُولى في حياتهم ظلام وفي اجسادهم سقام وفي قلوبهم اليأس المريع والملل الوجيع

اخفتي يا اصوات المرارة في قلوب الراكضين وراء الرغيف الذين لا تطلع الشمس الاّ وتربط الى اعناقهم احجار الرحى ، ولا تغيب الا لتطرحهم في الاكواخ العفنة المظلمة

اخفتي يا اصوات الحاجة في قلوب المحرومات والمحرومين اللباس ، والغذاء ، والدواء ، والعناية ، والملاينة ، والحنوّ ، والمحبة

اخفتي ايتها الاصوات الوجيعة في قلوب العطاش ، اللاهبين شوقاً الى اطايب العيش ، اللاهفين حنيناً الى حياة الحياة ، المتطاولين عبثاً الى كنه الكيان وهناء الوجود

. . .

انخفضي يا اصوات الكبرياء

المطنطنة في قلوب المتكبرين المفاخرين ، الساحقين باقدامهم قلوب الملايين والملايين

تلاشي يا اصوات الطمع في قلوب الاقوياء

القابضين بايديهم الفولاذية على سياسة العالم ، وصناعة العالم ، المكيِّفين الارض جمعاء بقالب ارادتهم القاسية ، الضاغطين على انفاس الامم لا تنال حقاً مشروعاً الا بعد ان تلاشى نفساً في نفس

. . .

ابتعدي يا اصوات الوحشة في قلوب الغرباء والمجنّدين والمنفيين ، التائقين

مثل يسوع الطريد «الى زاوية يسند اليها رأسه» آه ما اقسى الحياة ! وما اكثر الخلل في احكامها اللامنطيقية ! من ذا يفكر ان الذي تملأ هياكله السهل والوعر وتقدّم لذكره ربوات الذبائح وتطبع باسمه يومياً ملايين المداليات والايقونات والتعاويذ ، وتتلى كلماته كل يوم جهاراً من على المنابر وهمساً في اعماق القلوب . من ذا يصدّق ان الحياة ظلمت ذلك المعبود ولم تسمح له «بزاوية يسند اليها رأسه» ؟

ابتعدي يا اصوات الوحشة في قلوب التائقين الى فراش دافيء ، وبيت مسقوف ، وزاوية يسندون اليها رؤوسهم

. . .

اتئدي يا اصوات الثورة المدّارة في قلوب العمال الصاخبين ، المبدّلين نظاماً اعوج مضراً بفوضى جارفة مهلكة

اتئدي ايتها الاصوات المملوءة صخباً ورعباً وحقاً وعدلاً

اتئدي ! فسوف تتحول المدافع الى آلات حراثة ويسير الذئب والحمل جنباً الى جنب

. . .

اخرسي يا اصوات السكر والشقاوة والمحبات المتمرّغة في الوحول !
اخرسي ! لقد امتلأت الارض باللقطاء والمعتلّين والمشوّهين برصاً وجرباً !
اخرسي ايتها المحبات المتمرّغة في الوحول لقد كفاك ما ولدت من المسوخ !

. . .

هلي يا اجراس العيد ، ارتفعي فوق الضباب وامتزجي بنشيد المؤذنين وعودي الينا برداً وسلاماً

هلي وذكرينا بالذي منذ الفي سنة يدعو الى العبادة بالروح والحق

اهتفي يا اجراس التعزية والاكتفاء في قلوب المحرومين . وانت يا اجراس الايمان والرجاء والامل والقوة انشدي ، هلي . . اصرخي . . في قلوب الامم المطوقة ، المستعبدة ، السائرة هزيلةً ، وفقيرةً ، وحزينةً ، في مواكب الامرى والعبيد

٥٥

اعطوا يعطيكم الله

١

« احذروا الارمن ، اجتنبوا الارمن اياكم والارمن !

الارمني لا يحب احداً ولا يرعى ذمة أحد ، اجتنبوه فهو مفسد عليكم اعمالكم وطاردكم من دياركم »

. . .

مررتُ بحي من الاحياء فاذا بصبية كبار يقرأون في منشور أُلصق بالحائط هذه الكلمات ، وحولهم صبية صغار اجتمعوا يسمعون ويسمّون قلوبهم الغضة بسموم البغضاء والقسوة ، بفعل تلك اليد التي أبت الا ان تلقي عليهم هذا الدرس

وتابعت طريقي . فذهبت بي افكاري خمس سنوات الى الوراء وارتني ميتم عينطورة وفيه الف يتيم ارمني ابناء الفي شهيد وشهيدة

لم ارَ هؤلاء الايتام وحدهم ، ولم تسمع اذناي صوت انينهم وهم يسيرون في مفاوز الاناضول ، لم ارَ بعين الفكر تلك المجزرة الهائلة التي ضجّت منها الارض والسماء

لم ارَ شيئاً من هذا بل رايت طيف امرأة مسلمة ابنة رجل مسلم تدخل ذلك الميتم الذي كان بقذارتهِ وبما فيهِ من الهياكل العظمية اشبه بمقبرة منهُ بيت يضمّ اكباد الف ام بائسة

رأيت طيف تلك المرأة ورايت قلبها — قلب الام — يتفطر حزناً . رأيتها بلحظة تحوّل تلك الهوّة النتنة التي علا فيها العويل والانين الى مرتع امن وراحة

تلك المرأة الحنون كانت خالدة اديب . اتت سوريا ولبنان وزارت اولاد الشهداء ، ومن هناك توجهت الى المنزل العسكري في دمشق وفتحت ابوابهُ بما لها من النفوذ فاخرجت من مستودعاته الى هؤلاء الاولاد جبالاً من الاطعمة والاقمشة محوّلة حياتهم بدقيقة واحدة من جحيم الى نعيم

كانت خالدة اديب تنتمي الى الامة التي حكمت بابادة الارمن ، ولكنها كانت تنتمي بروحها الى ذلك الجوهر الاسمى الذي اجرى في قلب كل نساء الارض ينابيع الحنان والحب

اذكر ان ايتام عينطورة كانوا يوم سفر خالدة يعولون ويبكون وقد تعلقوا بها كما يتعلق الولد بامه ، واذكر خاطرة مرّت ببالي اوانئذٍ وهي ان دين المحبة هو فوق كل الاديان وان الرفق يصرع كل عداوة جنسية

. . .

لنكن ما نشاء ايها الناس ، لننتمي الى حمورابي او الى فرعون او الى التتر ولكن لنكن بشراً

ويا امهات هذا الوطن الطيّبات الحنونات يوجد كثير من الاطفال ينامون في هذا الشتاء تحت الخيام، هؤلاء الصغار يقبلون بشكر السترة القديمة، والثوب القديم ، والقليل القليل من الحب والحنان

. . .



٣

نحن الان في نصف الليل ، والاجراس النحاسية في الكنائس القريبة تجاوب اصداء اصواتها المتسارعات ،المتحمسات . منادية الناس الى الاجتماع مرة اخرى لذكرى ميلاد الاله الثائر الذي خط للناس مبادئ الثورة الالهية ، تلك الثورة التي لا تخاصم ولا تصيح ولا تسمع احداً في الشوارع صوتها ، تلك التي لا تقتل ولا تستبيح بل بدون فوضوية او بلشفية تقيم الحق على الارض معطية ما لله الى الله وما للناس الى الناس

غداً عيد الغربيين وانا من الطائفة الشرقية وحقي ان اكون غريبة عن العيد . ولكن اجراس التهليل هذه توقظ الشعور في نفسي ،ونفسي منذُ وجدت تبكي على الجائعين والمتروكين والمحرومين

الاجراس تهلل في الابراج المرتفعة والناس يخرجون على صوتها من المراقص مئات والوفاً

وهنالك الوف غيرهم تمرُّ الان امام مخيلتي ، هي الالوف اللاجئة الى الزوايا وتحت قباب الكنائس تنتظر رحمة الله وحنان الناس

الله من بخل الانسانية وكفرها ! الله من بيروت مركز مدنية الشرق ! تمرُّ فيها مواكب البؤساء فتحوّل وجهها كي لا ترى ولا تسمع

لله منا ! لا نفتح يدنا عن صدقة الا بعد ان نأخذ ثمنها زهواً ولهواً ورقصاً

تعالوا ايها البؤساء ، نقول — تعالوا واعطونا من بؤسكم حجةً أخرى لنقيم مرقصاً اخر ولنضحك ونسرّ حتى الصباح . تعالي يا اجواق الروسيين اطربينا

باصواتك ، اسمعينا من نغماتك انين الظلم والاحتمال فالانفجار فالثورة! اسمعينا تلك القرارات ذات الصعود والهبوط فنجود عليك ببعض الدريهمات !

تلك الدريهمات ثمن ورقة البالو ندفع مقابلها الالوف ثمن الاثواب وما يزينها ، ثم اجرة العربات ثم ارباح ملتزمي (البوفه) ثم نرمي الى المنكوبين بما يتبقى ونملأ الارض صياحاً انا دفعنا ثمن ورقة الى مشروع المنكوبين . الله من صغارتك وصغرك ياقلوب البشر !

ايها القارىء – كائناً من كنت – ان كاتبة هذه السطور تسترحمك في يوم العيد هذا ان تأخذ من جيبك ورقة (الخمسة غروش) وترسلها ضمن غلاف الى مركز الاعانة باسم منكوبي الهجرة

خمسة غروش ولك ان تزيد

ايها القارىء ! مسلماً كنت او موسوياً او مسيحياً عند ما تجلس اليوم وفي الاعياد المقبلة الى المائدة الفخمة او الى الصحن البسيط . وعندما تشتري لاولادك اللعبة الكبيرة او الزمور الصغير . وعندما تصفي حسابك في آخر هذه السنة – رابحاً ام خاسراً – لا تنسَ (خمسة غروش) المنكوبين

وكاتبة هذه السطور تقول لك من خلال رنين الاجراس :

أعطِ يعطيك الله

جوائز الفضيلة

يظهر انه لم يزل للفضيلة انصار مع كثرة اعوجاج الناس واندفاعهم في طريق الغواية . او هو انتشار الغواية يهيب بالمتشائمين ويدفعهم الى خلق اساليب التشويق للدفاع عن الفضيلة وتعميمها بين الشبيبة

ومن جميل هذا التشويق هو وضع جريدة « الايكو ده باري » جائزة كبرى « للفتاة الاكثر فضلاً من فتيات الوطن » فجاء هذا الاقتراح جديداً في بابه لان الناس يهتمون على الغالب بجوائز الجمال ، تفننوا بها ما شاؤوا فوضعوها للجمال المطلق اولاً ثم لجمال الرأس والعين والشعر والرجل حتى والساق .. وربما يذكر البعض منا شيئاً من جوائز الرؤوس الجميلة والاقدام النحيفة

وبعدُ، فقد نشر مقال « الايكوده باري » وبدأت رسائل انصار الفضيلة تنهال من رجال الدين والحكام ورؤساء المدارس وكل منهم يقدِّم اسم الفتاة التي يظنها اكثر فضلاً من سواها . والغرابة هي ان الكلّ اجمعوا على تقديم اسماء فتيات حملن على اكتافهن الضعيفة واجبات كبيرة وهي العمل المتواصل للقيام باود العجزة والمحرومين والمرضى من والدين واقارب واخوة وايتام

وبدأت الجريدة بالتحقيق فاخذت ترسل مندوبيها الى بيوت المرشحات ليدرسوا احوالهن عن قرب فكان هؤلاء يحققون ثم ينشرون مقالاتهم مع رسوم الفتيات

هل للجمال ولغضاضة الشباب تأثير هذا مقداره حتى انني عمدت الى نشر حديث اجمل المرشحات ؟ او هي تعاسة هذه الفتاة البادية في عينيها وخطوط وجهها وقفت تشفع الى جانب جمالها ؟ لا ادري

وهذه خلاصة ما قاله المندوب وصدَّره بهذه الاسطر

„ الانسة لاردي في العشرين من عمرها مستكتبة محتزلة « داكتيلو ستينو » تربح ٦٠٠ فرنك في الشهر تعول أباها الكسيح وامها العمياء واختاً ارملة مسلولة مع طفلتها ، واختاً مصابة بامعائها „

صعدت على الدرج الخشبي الى الطابق الخامس وقرعت الباب ، ولمَّا فتِحَ اذا بي امام الانسة لاردي في غرفة ضيِّقة ، رطبة ، مظلمة ، جلست فيها العائلة الى مائدة قديمة لم تزل عليها بقايا عشاء حقير

وقدمتني الانسة الى ذويها ، الاب المقعد ، ثم الام العمياء وقد اشرأبت بعنقها وعينيها المفتوحتين وعليهما غشاء ابيض ، والاخت الارملة ، هذه كانت متزوجة بعامل نشيط كريم الخلق ولكن رطوبة الخنادق اثرت فيه مدة الحرب فاصيب بالسل الرئوي ورُدَّ الى عياله ولما مات كانت العدوى قد سرت الى زوجه اما الطفلة الصغيرة — كذا قالت الانسة لاردي — فقد حنَّ عليها قلب احدى المحسنات فحفظتها من العدوى بان ابعدت امها الى السناتوريوم والآن بعد ان رجعت الام وضعنا سريرها قرب النافذة لتستنشق الهواء النقي · بقيت الاخت المصابة بامعائها وهذه ارسلت بدورها الى المستشفى بعناية قلب كريم

كانت الآنسة لاردي مرتدية ثوباً بسيطاً جداً ونظيفاً — ولعله الثوب الوحيد الذي تملكه — وقد وضعت على حضنها مئزراً لبقاً · كم كان منظرها

مختلفاً عن شهيرات الداكتيلو، الماثلات المكاتب العصرية بخفيف اثوابهن الحريرية وروائح عطورهن الذكية …

هي في العشرين من عمرها وتحسب من الجميلات، بقوام طويل وشعر كستنائي وعينين كبيرتين زرقاوين لمعت فيهما طلائع الحمى ، وبشرة صفراء ذابلة تنمّ عن التعب والحرمان ، وهي حيية الطبع فطرةً ، على ان العمل اكسبها سهولة في التكلم فحديثها حديث ادب ورزانة وثقة

قالت انها تشكر حاكم المقاطعة الذي افتكر بها ورشحها (للجائزة الفضيلة) وسألتها فاجابتني انها تربح ٦٠٠ فرنك في الشهر فتدفع اجرة المنزل والباقي لا يكاد يكفي ·· — في الصباح نشرب كلنا القهوة مع الخبز ، والقهوة تقوي اعصابنا، والظهر نأكل الخضر المسلوقة، ومساء الشورباء مع الخبز» ثم اشارت الى صحن الشورباء وكان لم يزل على المائدة والى جانبه، في صحفة، قشرة بيضة فارغة · هنا ابتسمت وقالت هذه البيضة هي حقي في كل مساء لانني اتعب واحتاج الى غذاء والا فانني اهبط ··· قالت (اهبط) واشارت الى العائلة، وكأني بها تقول (ويصبح هؤلاء تحت رحمة السماء)

وبينما كانت تتكلم كانت الدموع تجول في مآقيَّ والتأثر يضغط على حنجرتي فاتمتم كلمة اصرف بها فكر الفتاة عن موضوع شقائها

وودعت متمنياً لها ربح الجائزة ولما صرت في اسفل الدرج التفت واذا بالفتاة في اعلاهُ تنير سبيلي وحول وجهها هالة نور ذهبية ·· بقي ان اقول ان شهادة الحاكم تنص على ان الآنسة لاردي هي مثال الفتيات بالتأدب والرزانة والصبر والشجاعة

التطوّر النسائي

نعم! هو آتٍ لا ريب فيه، ذلك اليوم السعيد الذي ينظر فيه العالم الى الدمى المزخرفة كما الى ادواتٍ لا مكان لها في الانسانية الجديدة، الانسانية العاملة، الانسانية المدركة ان لا نصيب في عشائها السرّي لمن لا يعمل

وانني بسرور انقل شهادة مجلة «الالستراسيون» بالتطوّر الجديد النائي في باريز، تلك المدينة التي يسمونها مدينة الازياء والتي نُتهم باخذنا عنها كل قبيح — لنردّ ادعاءهم مرّة ونأخذ عنها المليح..

قالت الالستراسيون

«لقد جرى في الازمنة الاخيرة اهتمام جدّي بالنساء الجميلات جداً. على ان رصيفنا صاحب جريدة «الايكو ده باريس» اظهر لنا فكرة جميلة ظهرت غريبة في بابها بسبب الافكار العصرية السائدة. اما فكرته فهي تعريف الناس بفواضل الفتيات، وانتخاب عشرين منهنّ من بين مئات المرشحات، وقد قامت بهذا الانتخاب جمعية يرأسها الجنرال كاستنلو

واننا نخطئ الى الحق اذا نحن انكرنا التأثير الجميل الذي ساد على القراء في فرنسا وفي الخارج يوم اخذت الجريدة بنشر حكايات الفتيات ووصف جهادهنّ وبؤسهنّ. اما التصويت العام الذي اشترك فيه خمسة وخمسون الف قارئ فقد كانت نتيجتهُ ان الآنسة هنريت ساجه نالت الاسبقية بحصولها على اثني عشر الف صوت

وحياة هذه الآنسة مثال موثر للتضحية والعمل والنشاط النفسي. فقدت امها في السادسة عشرة من عمرها و بينما كانت تكمل دروسها كانت تعتني بالبيت وفيه جدّة عجوز وستة اطفال صغار كلهم مرضى لتحدّرهم من ابوين مريضين. في السابعة عشرة من عمرها بدأت تعمل خارج البيت براتب زهيد ثم توفي والدها فاذا بها ربة البيت و بين يديها حياة سبعة انفار. و بنشاط عجيب جاهدت ليلاً نهاراً واحتملت و يلات المرض الذي انقضّ على بيتها فذهب باختها ولازم سائر الاطفال زمناً. واخيراً وجدت مركزاً موافقاً وفازت من ارباب العمل بعطف ورأفة وزارها موخراً مدير جريدة «الايكوده باري» ليبشرها انها نالت لقب افضل فتاة في فرنسا باكثرية موءلفة من ٢٥٠٠ صوتاً مع جائزة قدرها ٤٥ الف فرنك (اي ٢٢٥٠ ليرة سورية) لتستعين بها على اعاشة ذويها. اما التسع عشرة فتاة الباقيات وبينهنّ الآنسة لاردي فقد نالت كل منهنّ جائزة. واذا كان مدير «الايكوده بارى» لم يتمكن من تعريفنا بكل فواضل الفتيات فهو على الاقل قد بدأ عملاً شريفاً وعادلاً وكثيرون سيسيرون علَى خطته. وها ان لجنة الاعياد في باريز قد قررت ان جائزة (ملكة الربيع) التي تعطى في كل سنة الى اجمل فتاة لن تعطى من الان وصاعداً الا الى افضل عاملة — واسراب العاملات اللائي لقبنَ (بالنحلات) سينتخبن من بينهنّ (ملكة النحل)»

لتحيَ النحلات العاملات! ليحيَ العمل الشريف الذي تحنى له الروءوس! وليحيَ ابن الوطن الذي يتبرع لنحلات الوطن باول جائزة من جوائز الفضيلة!

التربية القومية

الحمد لله الذي اوجد فينا من ينادي بالتربية القومية. ما هذا النداء سوى اقرار بفقدانها، فمتى شعر المرء انه بحاجة الى الشيء سعى وراءه، وفي السعي اليهِ نيل لهُ قريب. ومن ينادي بالقومية يصبح بها بشيراً — عاش اذاً هذا النداء وعاش البشير

كنت في عهد الفتوّة احلم لو تصل الانسانية الى يوم تختفي فيه الجنسيات والقوميات وتصبح الارض كلها جمهورية كبرى رئيسها الله

وجاء الشباب ومعه حادثات الايام فارتني ان الحلم بعيد والانسانية لن تصل الى حد الكمال الا يوم تمسي كل طوائف البشر في مستوى واحد اي يوم ترتقي كل امة ضمن قوميتها ومن ذلك اليوم — منذ تأكدت ان التفاوت بين الامم يجعل فيها قوياً وضعيفاً اسيء آكلاً ومأكولاً، صرت اعتقد بمبدإ القومية — القومية القوية الطّاحة التي ينادي بها الاستاذ بولس الخولي

هذه القومية لا تأتي — في نظري — الا عن طريق التربية. وهذه التربية لا يقوم بها الا كل من تطهرت عاطفته من كل تأثير خارجي وارتقى عقله فأمن الضلال وتسامت نفسه فعانقت نفوس الذين انما مرّوا على هذه الارض ليعلموا الناس كيف تكون التضحية

فجوابي ان قوام التربية القومية هو التضحية

ومتولّي امرها هو ابن البلاد، هو انا وانت ايها القارىء

انا القي كل الحمل على ابن البلاد لان من لا يعرف ان يحمل وطنيته كما حمل يسوع صليبه لا يستحق ان يعيش. وخير لهذه البلاد ان تسكنها اقوام عزيزة، من ان تسكنها امة تدوسها سنابك الخيل صعوداً ونزولا وذهاباً واياباً فتصبح امثولة في الخنوع ومثلاً في الذل

نحن نتولى امر التربية القومية في بيوتنا اولاً، اذا كان قضي على هذه البلاد ان تكون كل معاهدها قلاعاً تحتلها البعثات المتنوعة احتلالاً اشد وطأة من الاحتلال العسكري

نحن نتولى التربية القومية باتباعنا خطة اكيدة بطيئة لا تحول ولا تزول مغمضين اعيننا عن كل المساومات التي يمكن ان يعرضها علينا الناس، معتقدين ان العمل علينا وحدنا وان كل من يظهر اهتماماً بنا انما يفعل ذلك حباً بنفسه لا حباً بنا

لقد تسلح الغرب بحماية المسيحيين ليتمكن من الدخول الى هذا الشرق. ولو لم يوجد فيه مسيحيون لخلق الغربي حجة اخرى — كما خلق الله ادم من التراب — نعم ان هذا الخروج والولوج اوجد في نفس الغربي شيئاً من العطف على شعوب الشرق التي ظلمتها الايام. على ان اساس هذا العطف هو المصلحة، والمصلحة لا تعرف التحوّل عن الغاية. ولست ادري كيف يمكن ان نطلب تربيتنا القومية ممن لا يمكنه ان يخلص الى النهاية

وبعد ان نعقد النية على ايجاد التربية القومية يجب ان نضحّي. والتضحية شيء لا تقدر عليه النفوس المتعوّدة الصغارة، النفوس التي لا تعرف ان تسمو الى النور بل تعيش في الظلمة كما يعيش الخفّاش

لنضحِّ اذاً

ليضحِّ الموظف بان يرفع جبينه امام رئيسه الغريب ومتى ارتفع جبين الفرد ارتفع جبين الامة

ليضحِّ الشبان الراحة اليومية والعيش المبطن بالحرير وليطلبوا الجندية بصوت واحد. فان الوطن الذي تجبل أُسسهُ بالدم الافرنسي او الانكليزي يكفُّ عن ان يكون وطناً يوم تضنّ علينا امهات فرنسا وانكلترا بمجبات قلوبهنَّ

لتضحِّ الفتاة التي لديها متسع من الوقت وتساعد اباها على كسب المال فالمال هو وحده دعامة الاستقلال

لتضحِّ المرأة المتموّلة في سبيل الامة، فتعطي من مالها المدارس الوطنية والجمعيات الوطنية، وتعطي من نهارها الطويل ساعات قصيرة تصرفها في مستشفيات الامة ودور ايتامها وفي سبيل الاطفال الذين تضطر امهاتهم ان تعرق دماً لاجل الرغيف

لتضحِّ كل نساء الامة من عبادتهنَّ للمستحدثات الغربية فان الاموال التي نرسلها الى اوربا ثمن جرابات وازرار وخزعبلات هي دماء الامة وماء جبينها بل ماء وجهها بل هي ثمن صريح للسلاسل التي تزداد حلقاتها كل يوم

لتضحِّ الام ساعة فتعلّم ولدها لغة الاجداد بنفسها فمن العار ان نرمي المعاهد الاجنبية بهذه الحجارة كما نظرنا الى ذلّنا

انظروا الى الشعب اليهودي المتشتت في اقطار الارض منذ الفي سنة كيف حافظ على لغتهِ وتقاليدهِ وقولوا لي بعد هذا ان المعاهد الاجنبية هي المسؤولة عن كسلنا وعارنا

ليضحِّ السوري العائش في وادي النيل برغد وهناء وليرجع الى بلاده فقد كفانا ما استُعمِرَ من صحارى السودان على اكتافنا . فتكسير الحصى في الوطن افضل من الحياة تحت ظلال الناس

ليضحِّ المهاجر النائي مظاهر المدنيات الخلاّبة وليعد الى التربة التي انبتته فان كوخاً في البقاع افضل من كل قصور بروكلين والخبز الاسود في بلادنا اطيب من الخبز الابيض في ارقى بلاد الناس

لتضحِّ الامة كلها عاطفةً هي اصل البلاء ، لتضحِّ العاطفة الطائفية التي نسمُ بها وطنياتنا المختلفة

ليخفف الماروني من حبهِ لفرنسا والبروتستانتي من حبه لانكلترا والارثوذكسي من حبه لروسيا والمسلم من حبه لكل الجامعات الاسلامية التي يمكن ان تتألف في انقره وموسكو و برلين

لنخفّف من حبنا للناس ايها الناس فمن العناق ما هو خنّاق

يا بلادي

يا بلادي كم يتغنى بك الناس وكم تلعنين من بنيك !
يا بلادي . ما اكثر المتقاتلين على هواك وما اقل حظك من ذويك !
اما لبنيك عيون لترى بهاءك
اما لهم اذان لتسمع نداءك
اما لهم ارواح فتصبو الى الارواح العلوية المالئة فضاءك

. . .

يا بلادي ما اجمل الوانك الزاهية واحبّ انفاسك الطيبة واشد تاثير جمالك على من يدرك ان الحياة جمال وحب
يا بلادي كم اشتهي ان اكون رفائيل فاخلّد جمالك
او دانتي فانشد قصائد حبك
او جان دارك فاحرق من اجلك
بل اشتهي اكثر من هذا . اشتهي لو اصير روحاً علوية قدسية فادخل روح بنيك وانفخ فيهم شيئاً من شعلة حبي وهيامي

. . .

احببت بلادي كما يحب الشباب . احببتها اولاً من اجل الحب . ولما اقتربت من هيكلها وتجلى لي بهاؤها في ليلة الهيّة ملأت انفاسها انفاسي

وامتزجت روحها بروحي فصرت – ككل المحبين الراسخين – احبُّ الحب لاجل الحبيب

ذلك كان في ليلة من ليالي الصيف عندما توغلت في قلب لبنان وسرت بين سهولهِ وجبالهِ ودخلت في صميم البقاع الى ما بين الجبلين القائمين كهيكلين عن يمينه وشماله

سهرت الليل على قمة من القمم المطلة على المرج الوسيع ، وفي اخر الليل جاءت الالة البخارية فحملتني وهرولت بي نزولاً الى ان استقرت في رياق ومن هناك سارت بي خفافاً الى بعلبك

وما انسى لن انسَ ليلة بيضاء كشفت لي عن مخبآت وكنوز بلادي . سرت وسط ذلك المجوَّف الواقع بين لبنان الشرقي ولبنان الغربي . ذلك المجوَّف الذي يمتد من قرب جزين جنوباً و يتصل شمالاً بسهول سوريا المخصبة

كان القمر يتضاءل ليغيب وراء لبنان الغربي . واوائل الفجر تسرع صعداً فوق لبنان الشرقي مرسلة خيوطاً ذهبية . فتراءى لي ذلك السهل الفسيح كوجود لا قرار له ، يخفي في جوفه كنوز الحياة المستقبلة ودفائن الحياة الماضية . . . تراءى لي كجبار نخور يهزأ بالاجيال وما تحمله من الحوادث ويظل سكوتاً صبوراً يعطي باليد الواحدة لبنيه خيرات تربته ، ويخفي باليد الثانية في طيات تلك التربة الكريمة الكتومة عظام واطماع الطامعين والفاتحين

وقفت الى نافذة القطار وقد عراني خشوع ورعدة ، وتغلغل برد الليل في مفاصلي وعظامي ثم لمعت شهبٌ واندلعت من فوق ذلك الجبل السنة لهيب سماوي واطلت المحسنة الازلية لتفرّق على الكائنات الحرارة والنور فقلت

في نفسي هذه هي علّيقة موسى تحترق ... ونظرت الى السهل فاذا بي ارى من بعيد اعمدة هيكل الشمس واقفة كحجة ازلية تنطق بمجد معبودة الاقدمين وعزّها القديم

فتأملت ، وقد تململت في نفسي آيات العبادة ، في ما يحيط بي من مظاهر الحب والجمال وفهمت لماذا اقام الاقدمون في هذه البقعة من الارض المذابح والمحاريب

فهمت لماذا اكتسح المصريون سوريا وداسوا بحوافر خيولهم عروش ملوكها . فهمت لماذا سالت هنا دماء الحثيين والفرس واليونانيين والرومانيين . فهمت لماذا قذفت رمال الصحراء قبائل الحجاز الى قلب بلادي . ولماذا دفعت اوربا جيوش الصليبيين

ولماذا بصقت لنا جبال الاناضول قبائل الاكراد والتتر

فهمت لماذا احترقت اوربا بالحرب العالمية

ولماذا فُجّرت عروش الامبراطورية العربية

ولماذا غضبت سيدة البحار وغلا قلبها بالطمع فنفثت من صدرها سموماً لفحنا لهيبها وتركت في اجسامنا هذه الكلوم

وفهمت لماذا يموت ابناء السين على حدود بلادي ولماذا يسفكون دماءهم في سبيل دعوة ، جاحدة ، ناكرة

فهمت في تلك الساعة معنى الروح القوية العطرية الالهية المنبثقة من تربة بلادي . تلك الروح الجذّابة التي خطفت ابصار شعوب الارض . تلك الروح الحسودة التي حفظت هذا القطيع وابقته كما كان منذ الاف السنين

ينظر الى اصناف البشر تمرُّ وتمرُّ وتمرُّ وهو جامد يسمع وينظر ولا يتأثر

بورك لكم باطماعكم ايها الناس — تقول بلادي

بورك لكم بهذه المدنيات السريعة الاندثار كازهار الربيع

بورك لكم باصنامكم ومعدات هلاككم

اما انا فلا ازال منذ اقدم ازمنة التاريخ انظر اليكم تُدفنون وتندثرون امة بعد امة ودولة بعد دولة

تاملوا ايها الناس بقوة كياني ! تاملوا بالابناء الذين ولدتُهم كيف ثبتوا على مصارعة الايام

تاملوا بابنائي كيف لا يزالون الى اليوم يتكلمون اللغة التي نطق بها سام واسمعوا اناشيدهم فهي باقية كما كانت يوم كان رعاة اليهود يعزفون بالمزمار على جبال جلعاد . . .

اما انا المرأة الشرقية ، الغيورة من مجد الامم واعلام الامم . فلم تشبع نفسي مما قالته بلادي . لان لي نفساً جبارة كالحياة وطماعة كالموت

اريد بلادي عزيزة ، منّاعة . اريدها متشبعة من كل ما اندثر فيها من المدنيات ، ومفرّقة على العالم دروس العلم والحكمة

وكما تألمت الامومة الجريحة في قلب راحيل فصرخت بمرارة الى يعقوب « اعطني ولداً والاّ اموت » هكذا وقفت نفسي الجائعة على اطلال بعلبك فصرخت صراخاً الهياً كالالهة وعميقاً كالهاوية

يا ابناء بلادي القريبين والبعيدين يا ابناء بلادي اعطوني وطناً والاّ اموت

تعبت من المدينة

الى جبل الرب ايها المتعبون ، الى الغابات التي ردَّدت قبلات سليمان والقمم البيضاء حيث تجلت قدسية يسوع ، الى لبنان في الصيف والشتاء والربيع والخريف ، الى قممه ووديانه وآكامه وسهوله وسواحله · الى لبنان في كل آنٍ وزمان

. . .

تعبتُ من المدينة فذهبت الى سفح «حريصا» حيث وقفت امُّ الناصري فاتحة ذراعيها وكأني بها تقول بلسان ابنها « تعالي اليَّ ياجموع التعبين »

تعالوا اليَّ وانا اريحكم يقول الاله · وما الاله ورمز الوهيته سوى هذه الجبال الصامتة والسهول الضاحكة، والغدران الراقصة ، وهذا البحر الغضوب الوثوب اللعوب ، يسخط فيَغُولُ فيثور هاجماً محطماً ويعود متذللاً لطيفاً مداعباً مهيناً مدغدغاً اقدام لبنان ورمال ساحله البيضاء

الله من هذه الآيات الخالدات ! من اناشيد رقص على انغامها قديماً كهان عشتروت ، الله من رمال ازلية نتمرغ عليها اطفالاً ونلعب فتياناً ونحني كهولاً ونندثر شيوخاً · الله من هذا السكون الاخرس المنادي بفم التمثال الصامت « تعالي اليَّ ياجموع التعبين » . . .

تعبتُ من المدينة، من صراخ الناس وخرير العربات وحشرجة السيارات واختلاج المائتين تحت دواليبها ، تعبت من المدينة ومن اصنامها وهياكلها

ومذابحها . تعبت من كل ما يعمي و يصم و يخنق الالوهية في الكائن المصنوع على مثال الله

تعبت نفسي من المدينة ونفسي منذ وجدت تسير بين الناس وتتفرّس في عيونهم علّها تجد رسماً او شبه رسم للطابع الاسمى . ولكن ما اكثر ما رأت نفسي من المسوخ . وياالله من حزنها عندما تحوّل وجهها عن اشباهها وتنتحي مرابض الانعام علها تجد في وجوهها مسحة من روح الحق وفي انفاسها نهلة من الحياة الازلية

تعبت نفسي من المدينة وكم في المدينة من بيوت تنهار واطفال تئن ؟ تعبت من انين اطفال ومن نزع ضعيفات تمزقهنّ اظافر الرجال والسنة النساء

تعبتُ من المدينة ومن غيرة اقوامها الآكلة ! هولاء الذين ينبشون حول خفايا القلب الخفيّة فاذا فتحت لهم داسوها باقدامهم واذا اقفلت في وجوههم ساروا لاعنين معربدين

. . .

تعبت من كل ما في بطون الصحف والاوراق وهل في اكثرها الاَّ ثرثرة الانسان الابدية . هذا الانسان الذي ساء ذوقه فاصبح ولا لذة له سوى اللغط الذميم

تعبتُ — وانا انقل اللاسلكيات الى بني امي — من منظر الانسانية تسير مصفّدة بارادة رجل واحد يلعب بحياة الروسيين والبولونيين والشرقيين تعبت من اختلاج الربوات والملايين

وانت ايتها الانسانية أفما تتعبين ؟

تعبتُ — وانا في نافذة ارى منها الحاكم والمحكوم — من رؤيتكم يا بني امي على اقدام الامم . تعبتُ منكم معشر الواشين والمتذللين والراكعين انصدعت حزناً على جباهكم المعفرة وركبكم الدامية

وانتِ ايتها الامة أفما تتعبين ؟

تعبتُ من المدينة فذهبت الى جبل الرب . فتعالوا انتم ايها التعبون . تعالوا في الصيف والشتاء والربيع والخريف تعالوا طهروا نفوسكم بخيوط الشمس وضياء القمر

تعالوا الى اقدام امّ الاله واسمعوا نشيد البحر القديم حيث رقصت قديماً قلوب المحبين وحيث تسكب اليوم نفوس المتعبدين

دَرسٌ في الوطنيةً

(١)

ذكر الكاتب الانكليزي الشهير سونبرن (Swinburne) في كتابه (صلاة الامم) ان فرنسا في صلاتها الى الحرية تقول النشيد الآتي:

ايتها الحرية! انا رمزك وانا رافعة اعلامكِ

انا صوتك وصراخك

انا التي غسلتك بدموعي وصيرتك اكثر بهاء

ألم ترفعك يداي الداميتان من الحضيض لتغذيكِ وتحييكِ

ألستُ اللسان الذي تكلم عنك والعين التي انارت طريقك

ايها السادة — من سنة ١٨٧٠ الى الان ظهر على الارض اناس كثيرون جعلوا همهم تكذيب هذا المديح ليحملوا العالم على الاعتقاد اننا امة تمشي الى الفناء. ولقد نجح هؤلاء الدعاة. ففي كل مكان كنا نسمع هذه العبارة: لقد شاخت فرنسا واصبحت امة قديمة

نحن لا ننكر اننا امة قديمة. واننا اول امة شعرت انها (أُمة) وانها (وطن) ولكننا لا ندري اي عار في القدمية قالوا اننا جمعنا كثيراً من الامجاد وكثيراً من الكنوز وكثيراً من العاديات، وكما يجلس شيخ قديم بين تحف قصره جلسنا نتذكر مجدنا الغابر وعزّنا السالف

(١) من محاضرة الفرنسية لموريس بارس في الجمعية الملكية في لندن

وقالوا انا امة غير رصينة وان همنا في الحياة هو الركض وراء الملذات. وتراكضت الامم الى عاصمتنا لتذوق هذه الملذات

ايها المبغضون الظالمون ! كيف يمكنكم وانتم ثملون ان تعرفوا ماذا يجري ضمن عائلتنا التي تعرف ان تسكن بعيدة عن الضوضاء

ان تلك العائلة كانت تختمر — بينما انتم تسكرون — بالعاطفة العلوية. فلما دقت الساعة وعلا النداء نهضنا كشخص واحد ولبينا ذلك النداء كما لو كان وحياً سماوياً

. . . .

ارجع بكم الى شهر آب سنة ١٩١٤ حين بُوّق بالبوق وقرعت الاجراس في قباب الكنائس التي بنيت اساساتها فوق المدافن فكانت اصواتها ترنّ عميقة هائلة كانها اصوات الملايين من الاموات وقد قاموا من مراقدهم ينادون الرجال ويندبون حظ النداء

واحتشدت الجموع في المحطات من اطفال ونسوة وشيوخ حول الراحلين الذين كانوا يصرّون باسنانهم قائلين (لقد ارادوها فهيا بنا)

لا يمكن لي ان اصف كل المشاهد المؤثرة ولكنني ساسير بكم الى مدرسة سان سير الحربية فتقفون هنيهة بين الشبان الصغار وترون عاطفة امة باسرها تختلج في صدور فتيانها

تحتفل هذه المدرسة كل سنة بعيد الحرية في شهر تموز. وبمناسبة العيد تقيم ادارة المدرسة حفلة وداعية للضباط المنتهين الذين بعد انتهاء الحفلة ياخذون تحت رعايتهم الصف الذي يليهم في الدروس ويعمّدونه باسم يتفق عليه الجميع

ففي ليلة ١٤ تموز – اي في اسبوع المفاوضات التي سبقت الحرب الكبرى – ابلغ مدير المدرسة الضباط المنتهين ، وكان اسمهم (مونميراي) ان الحفلة السنوية ستكون بسيطة وان عليهم ان يعمّدوا رفاقهم بدون ابهة خلافاً للعادة

فاجتمع الكل ليلاً في باحة المدرسة ، وفي وسط سكوت عميق عمّدت فرقة مونميراي الضباط الفتيان باسم صليب الراية . ثم لفظ بعض الضباط الخطب الحماسية منهم ضابط اسمه غاستون فوازار وقف وقال

(اقسموا ايها الرفاق انكم لا تذهبون الى النار الا بثياب العيد . بالقفاز الابيض والريش الابيض في القبعات)

فصرخ ضباط مونميراي وعددهم خمس مئة شاب (نقسم)

وتلتهم فرقة صليب الراية وعدد فتيانها خمس مئة صرخوا بصوت واحد (نقسم)

لقد كلفنا هذا القسم ثمناً غالياً فان الريشة البيضاء كانت علامة فارقة اتخذها الالمانيون هدفاً فاصيب اكثر هؤلاء الاحباء في جباههم . ولست بذاكر عدد الاموات ولكن معظمهم سقطوا الواحد بعد الاخر

وهاكم ما كتبه احدهم وهو شاعر فتى اسمه جان إلار الى امه في وصف تلك الحفلة :

بعد العشاء اخذ كل منا سلاحه واجتمعنا في الساحة العامة تحت إمرة القائد وكانت الليلة جميلة والنسيم عطراً والسكوت عميقاً ملتفاً حولنا جميعاً . وفي وسط الحماس المتعاظم وقفت وانشدت قصيدتي التي تعرفين

يا أُمي الصغيرة ! لن اقول في حياتي هذه الابيات لان الساعة التي نظمتها فيها لن تعود · هذه الساعة آن اتهيأ للسير الى الحدود وحولي الف شاب ينتفضون بعاطفة الكبرياء والوطنية وحمّى الحياة

آه يا امي لو نُفخ في البوق في هذه الساعة لحملنا صداه الى ضفاف الرين

تعرفون ايها السادة حكاية الشاب الذي هجم على خندق الماني صارخاً تلك الصرخة التاريخية (وقوفاً ايها الاموات)

لقد نقلت رسم هذا الشاب اكثر جرائد العالم ولم تبقَ مجلة الا ذكرت اخبار شجاعته ، فاردت ان اراه لاسمع منه شيئاً · وها كم ما قال لي

كنت مع رفاق لي وراء خندق حاول الالمانيون الاستيلاء عليه مدة ثلاثة ايام متواصلة بشدة وعنف لا مثيل لهما · وكانت رمانات (الشرابنل) تتساقط بالمئات والالوف وصراخ المحتضرين حولنا يصمّ اذاننا و يمزق نفوسنا وكان بجانبي ملازم يدخن لفافة و يبتسم للموت واذا برمانة اصابت راسه فاستند الى جذع شجرة واغمض عينيه واذا بالدماء تتدفق من جرحه وتندفع الى الارض بشدة فتتألف منها فقاقيع كالخمر المتدفق من برميل فوق وعاء

ثم تدلّى الراس وهبط الجسد الغض · اذ ذاك ذعر الرفاق لموت رئيسهم ولا يمكنني وصف اليأس الذي استولى علينا جميعاً · فتفرقنا وهممنا ان نختبيء وراء اكياس الرمل بينما كانت الجثث تتساقط كما في لعبة الكيل

و بعد ان اختبأت لحظة رايت الجندي (بونو) يناضل وحده نضال المستميت فخجلت من نفسي وتبعته ثم نظرت الى يميني ورايت الخندق وطوله يبلغ الثلاثين متراً والالمانيين من خلفه يضاعفون الهمة ليدخلوه · و بغتة دخل

الى رأسي فكر هائل وقلت لاذهبنّ وارى ماذا يجري هناك · كانت الفكرة سريعة تكهرب لها جسدي فمشيت ··· و ياالهول ما رايت ! الاموات اكداساً اكداساً وانا وحدي بينهم فجننت من غيظي عند ما رايت الاعداء يتقدمون وقلت « اذاً قد نُحر كل هؤلاء الاحباء عبثاً وسيأتي العدو و يدوس بحوافر خيله هذه الوجوه الجميلة ؟ لا·لا ان هذا لن يحدث! لن يحدث ابداً » والتفت الى الاموات في الحفر وصرخت ماذا تفعلون هنا ما بالكم نياماً وقوفاً ايها الاموات ! وقوفاً ايها الاموات

ولم اعد ارى سوى الوانٍ حمراء امام عيني وشعرت بان ارواح الاموات كلهم تتحد مع روحي ورايت الرفاق يتراكضون حولي ويصيحون باصوات كالرعد

وقوفاً ايها الاموات ! وقوفاً ايها الاموات

ما جرى بعد هذا لا يمكنني ان اقول بالتدقيق لانني اشعر بالضباب يغشي ذاكرتي · اذكر ان ايماني في تلك الدقيقة كان يزحزح الجبال وخيل لي اني كبرت واصبحت شيئاً عظيماً له قوة غير متناهية وغير محدودة ·شعرت ان لي عيوناً وايدي كثيرة بهذه اضرب وبتلك اصدر امراً بهذه اصيب وبتلك انجو من قنبلة ولم نزل كذلك حتى ذابت قوة الاعداء امام حماسنا الالهي فتراجعوا

و بعد هذا اتى اليّ رفاقي وهنئوني · فكان كلامهم اطيب على قلبي من كل الصلبان والمداليات

والان ارجو منك ايها الكاتب ان تصدّق انني لست بطلاً ولم يكن لي

في سابق حياتي شيء من الشجاعة و كثيراً ما ارتجفت قبل الهجوم على خندق، ان ما عملته في ذلك اليوم لافضل لي به، الفضل هو لرفاقي الاحياء والاموات الذين كانوا قدوة لي في الحياة وفي الموت ،،[1]

---

(١) لم اعرّب هذه الحادثة لما فيها من رائحة الدم فلا يمكن لاي امرأة كانت ان تسر بحوادث الحرب وو يلاتها وانما لالقي على شبيبة بلادي درساً في الوطنية

ان في هذه العاطفة ، عاطفة الدفاع حتى الموت شيئاً ترتاح اليه النفوس الحرة . فهل آن لنا ان نشعر بمثل هذه العاطفة

ما نرى وما نسمع

نسمع همساً ولغطاً وصريراً، بل صراخاً وعويلاً ، نسمع الشتائم واللعنات حتى ولقد سمعت كلاماً بذيئاً — فقلت في نفسي سيبقى الشرق شرقاً حتى يتدرّج ويتطوّر و يتقلب في كل الظروف التي جعلت الغرب غرباً

قال لي احدهم: ما هو مذهبك ياسيدتي ومن تحبين من دول الغرب ؟
قلت : ان ديني دين العقلاء والعقلاء لا يبوحون بدينهم. واما من جهة المحبة فانا ياسيدي احب اولاً نفسي، ونفسي قبل كل شيء شرقية ، ثم انني اجلّ واكرم كل الشعوب الحية الراقية

ثم قال لي : هل علمتِ ان سوريا ستنال استقلالها وان مبادئ ولسن ستكتب باحرف من نور وانا سنحيا بعد الان حياة طيّبة ؟

اجبته : — وكنت اذ ذاك متشائمة — اعلم شيئاً واحداً وهو ان الغرب قويّ والشرق ضعيف وان كلمة الاستعمار كلمة تكتب اليوم باحرف من ذهب على صفيحة من فضة ضمن اطار من الجوهر ولكن الاستعمار يعني الاستعمار وان ما قدّر فهو كائن وهذا القدر يخطه اليوم مؤتمر الحلفاء الذي يأمر بامر الله الذي —جل جلاله — جعل الحق القوة

اما اليوم وقد تعدّل تشاؤمي وداخله شيء من التفاؤل فلا بأس من كلمة صغيرة ادسّها بين جمهور الصارخين وقد قيل مراراً ان صوت النساء من صوت الله وانا صدّقت والذنب ليس ذنبي

قال سبنسر ما معناه: ان مبادئ الاشتراكية لا يمكن تطبيقها عملياً ولكن

وجودها لازم فهي لجام تضعه الاكثرية في فم الاقلية اي العمال في افواه اصحاب الاعمال . هذا اللجام يشدّ قليلاً كلما اعمى البطر المحتكرين والمتمولين فتُحفَظ بذلك الموازنة الطبيعية اللازمة. فاللجام الذي بيدنا — نحن الشعوب الضعيفة—نحن الاكثرية ، نحن العمال، الذين نحيك بدماء قلوبنا ثوب اوربا الاقتصادي، اللجام الذي وضعته الظروف في يدنا هو صوتنا نرسله من هنا صراخاً فيصل الى المؤتمر همساً . وهذا الصراخ لا يجب ان يصل الى اذان من يلزم لغطاً مشوّشاً بل نغمة واحدة تضرب على وتر واحد

ان اللجام الذي في يد الاكثرية اليوم لا يجب ان يرخى فتضيع الفرصة ، ولا يجب ان يُشدّ فتغضب اوربا القوية صاحبة العز والملكوت والجبروت وترفسنا رفسة ترمينا خمسين سنة في زاوية من زوايا السياسة

ياقوم قد اتفقتم على الاستقلال فاتفقوا على سنّ بروغرام معتدل

ان اوربا اليوم مع كل احترامها لنخبة رجالنا الافاضل تعرف حقيقة اجتماعية تجرحنا في اعماق قلوبنا ولكنها حقيقة لا يعلو عليها حق . وهي اننا عشنا مئات السنين في الذل والخنوع ولنا كل نقائص الشعوب الذليلة من سقم في الارادة وضعف في النفوس وجبن في القلوب

ياقوم! اخاف ان تطلب احزابكم المختلفة ثلاث دول في آن واحد فينظر الينا المؤتمر باحتقار ويقول : ياهؤلاء يظهر انكم اتفقتم على ان لا تتفقوا ولهذا نحن ستتفق من اجلكم ولا صوت لكم في هذا الاتفاق

واذا اسكت المؤتمر صوتنا اليوم قضي علينا الى اجل مجهول

فاتفقوا قبل ان يتفق المؤتمر عنكم او . . . عليكم . والسلام ورحمة الله

بابل في سوريا

كنت اعدّ — على اصابعي — لئلا اغلط بالعدّ فيضيع الحساب

عددت :

حزب الاستعمار الانكليزي

حزب الاستعمار الفرنسوي

حزب الاستقلال مع الوصاية الانكليزية

حزب الاستقلال مع الوصاية الفرنسوية

حزب الاستقلال مع الوصاية الاميركية

حزب الاستقلال التام الناجز بلا وصاية

حزب الضم

حزب الفتح

حزب التجزئة . والساحل . ولبنان الكبير . ولبنان الصغير . ولبنان الاصغر

قلت : أف ! يكاد نَفَسي ان ينقطع

فقال لي جليسي وكان ضليعاً في السياسة :

استقلالنا سنأخذه تاماً . تاماً ... لارقابة ولا وصاية . نريد ان نستجلب من اوروبا اختصاصيين لتعليمنا طريقة الاحكام . اختصاصيين بالاجرة من اي صقع ومن اي قطر نريد

من بلجيكا وهولانده وسويسرا واسوج والدانمرك
وكاد يقول حتى ومن داهومي

قلت في نفسي هذا حزب جديد اعدّه مع الاحزاب اما اسمه فسيكون حزب بابل او التبلبل او البلبلة ....

ما شاء الله ....

ولم اتمالك نفسي فغضبت غضب رجال الصلاح ونفثت من اعماق روحي نفثةً احملها منذ اربع سنوات وتكاد ان تقتلني

قلت له : ان الشعب الذي لايعرف ان يقول لا اريد لا يحق له ان يقول اريد ....

سنون اربع اذابت منا الشحم واللحم. أفنت الاعصاب ، ودقت العظم ونحن وقوف نتفرّج ولا نعرف ان نقول لا نريد

لا نريد ان تستبيحوا اموالنا
لا نريد ان تشلّوا تجارتنا
لا نريد ان تميتوا اطفالنا جوعاً

سنون اربع واطفالنا تحشرج في الاقنية والمزابل وقد مسخها الشقاء فشابهت السعادين والقرود، بل بقايا عاد وثمود

من هو طفل محمد مصطفى من البسطة وطفل يوسف توما من شنانعير؟ هما طفلاي انا بحكم الامومة التي حوّلت الياف قلبي وجعلتها اوتاراً حساسة رنانة. هما طفلاي انا وطفلا كلّ امرأة شرّفتها الامومة . فاذا كنت وانا امٌ لا اعرف ان اشفق على طفل جاري فقد سقط عني لقب الامومة الالهي

طأطأنا الرؤوس وعفّرنا الوجوه ، بذلنا الاموال وفلذات الاكباد ، ولكننا ما عرفنا ان نقول لا نريد · خفنا من المشنقة ومن النفي كأن الحكومة البائدة كانت قادرة ان تشنق او تنفي كل اهل بيروت والشام لو اجتمعوا في يوم واحد وصرخوا بصوت واحد لا نريد !

قابلت مرةً ضابطاً انكليزياً وضابطاً افرنسياً كانا ذاهبين الى قونيه في اوائل الاحتلال ، قلت لهما : كل بقايا الجيش التركي موجودة في قونيه افلا تخافون غدرهم وانتم حفنة ؟ فاجابني كلٌ بلغته — كأن كل واحد يترجم افكار الاخر — :

« واي مصيبة تحدث اذا قُتلنا في وديان الاناضول ؟ الا تعلمين ان كل ضابط يقتل هو سلاح جديد يضعه الاعداء في يد الحلفاء ؟

هذه شعوب تقدر ان تقول نريد ، بحكم الله واوامره والعمران وشرائعه والتاريخ وآياته التي لا تقبل الرد والتحوير

وخفت ان يفسر سامعي هذه الكلمات على غير معناها فقلت له : إستقلالنا اعطي لنا بحكم ظروف فاقت التصور · فالظروف الطارئة شيء والتطوُّر الطبيعي شيء آخر · على انه لو أُعطي او لم يعطَ فليشتغل كل منا لاجل هذا التطور

قال عهدتك تفكرين ضمن دائرة التدريس والتهذيب فما بالك ···

فقاطعته وقلت انا كارهة السياسة واوحالها · ولكن هذه ليست سياسة يا اخي · هذا درس في الاخلاق

قولوا لها لتقول لهم

هي : اللجنة بالطبع — : لجنة الاستفتاء الاميركية

وهم: زعماء السياسة

قولوا لها : كلبنانيين وبيروتيين، كشاميين وحلبيين ، كعراقيين وحجازيين كاناضوليين وفلسطينيين ، قولوا لها ما تشاؤون

اطلبوا بلسانها، كمسلمين ونصارى ، كدروز ونصيرية ، كشيعيين وسنيين كروم وموارنة وكاثوليك وسريان وارمن وبروتستانت — الى اخر ما ابتلي به هذا الشرق من الطوائف — اطلبوا بلسانها الدولة او الدول التي تريدون ولكن كشرقيين قولوا لها لتقول لهم ان هذا الشعب الضعيف الذي عليهِ تموّهون ، ان هذا الشعب الضعيف اليوم سيقوى غداً بفضل النفخة التي تنفخون ، والاموال التي تنفقون ، والدسائس التي تخلقون ، والاحزاب التي توجدون! نعم ان احفاد هذا الشعب سيطالبونكم بالمبادىء الخلاّبة التي تسنون!

قولوا لها لتقول لهم : ان ابناء الشرق سيطلبون في المستقبل — القادم عليكم بالخير — سيطلبون الحق صريحاً والسياسة صريحة والقوة صريحة... وان هذه الالاعيب التي يتلهون بها هناك منذ عشرات السنين ربما تدهش في المستقبل زنوج افريقيا . اما شبيبة هذه البلاد فقد فتحت عيونها وآذانها وهي تقرأ وتكتب بحمد الله . تقرأ التاريخ وفلسفته والسياسة وتاريخها ومنعطفاتها ودهاليزها وسراديبها ولوالبها ...

قوموا امامها بحق الضيافة كما يليق نحو امة كريمة نبيلة فما نسينا ولن ننسى ما فعله ابناؤها معنا مدة الحرب. لا. لا ننسى الدكتور كراهام وقيامه وحده بمستشفى العصفورية مدة سنتين كاملتين ولا المستر دودج الشاب وتسلقه تلال لبنان صعوداً ونزولاً واطعامه المئات من اطفال الشوف ولا السيدة الكريمة التي أُوقفت في الدائرة جزاءً على الاحسان

قولوا لها اننا نعرف الجميل ولا ننسى ....

ولكن! ...

نظرة الى هذه الاحزاب هنا وهناك وهنالك، نظرة الى مبدعيها وموجديها نظرة الى ما يقال هنا وما يقال هناك. ونظرة مقابلة واستنتاج بين ما يجري هنا ويجري هنالك

يا لله!

ألِدرس احوال البلاد هم قادمون؟

إنّ سوريا، بطوائفها ومعابدها ومدارسها ومبشريها. سوريا بسهولها وجبالها ووديانها بل بشجيراتها واحجارها. سوريا مرسومة ليس علَى خرائط بل على ادمغة الساسة هناك حتى اقدر ان اقول انها تنتقل من الاباء الى الابناء بالوراثة.. قسموا الشرق الى اشطر ونحن امة رضينا منذ مئات من السنين قسمة الجبار فينا. رضينا ان نكون جسراً يعبر عليه الفاتحون شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، رضينا مرغمين بحق القوة وقوة الحق. ثم انتظرنا الحلفاء والفرج الذي يحملون

فماذا جرى؟

جرت اعجوبة غريبة، تجمعنا ثم تفرّقنا ثم تحزمنا ثم تحلّلنا ثم ترمي بنا الى الهواء اعواداً تتبعثر هنا وهناك

حالة نحن فيها كالخارج من حرب الداخل في احرّ منها واوجع

قولوا لها لتقول لهم كنا قبل ان تشبّ الحرب وفي خلالها قلباً واحداً وميلاً واحداً وارادة واحدة · لكن السلم ولد لنا حرباً خاصة · فمن ترى يقول لهم :

لا احد منهم يقبل الوصاية علينا سبحانك ربي !

قولوا لها لتقول لهم · انا فهمنا · ·

ولا بأس اذا ردّدتم اننا نريد قوةً صريحةً وقولاً صريحاً وعملاً صريحاً ازاء هذه الحالة · · · واننا وان جُرِرنا اليوم في هذا التيار فان سماء الشرق الجديد تتلبد بغيوم ربما تعلّم الغرب الصراحة قولاً وفكراً وفعلاً · والمستقبل لله

اما اذا كنتم لا تريدون ان تقولوا فقد قلت هنا عنكم والسلام

من اساطير الاقدمين

(١)

الشرق بعد الف سنة

جرت الحادثة الاتية في قصر من مدينة مرسين المبتدئة من شاطئ بحر الروم والممتدة بضواحيها وما يحيط بها من المزارع والقرى الى تحت اقدام جبال طوروس حيث قامت منذ اكثر من ثلاثة الاف سنة مدينة رومانية قديمة

كان ذلك حوالي الغروب وقد اخذ ظلام الليل ينشر ستائره السود ، ثم تبدد ذلك الظلام بغتة وانارت الكهربائية البيضاء كل القصور الواقعة على جانبي الشارع ، وهي كأنها سلسلة نجوم معلقة بخيوط فضية فوق رؤوس الناس

وهناك على الرصيف الواسع مشى مئات من العمال الى بيوتهم وهم يتنزهون ويتغنون بعد تعب النهار ومشاقه

قلنا ان الحادثة جرت في قصر من هذه القصور

ففي قاعة كبيرة مفروشة بفاخر الاثاث قعدت عجوز قديمة بيضاء امام الموقد اللامع وقعد حولها احفادها البعض ركّع والبعض جلوس والبعض وقوف قعدوا يصغون الى حكاية العجوز البيضاء التي كانت تتكلم وصوتها يتهدّج

« في ذلك الزمان اي في سنة ١٩١٨ كانت بلادنا بلاد بؤس وشقاء ،

(١) معربة عن الفرنسية والاصل للروسيان ماري انفره

فشوارعنا كانت ضيقة مظلمة وكان السائر فيها ليلاً يتلمس طريقه تلمساً بين الحفر والاخاديد .... وكان اجدادنا المساكين يتحاشون الخروج ليلاً لان عصابات اللصوص كانت تختبيء في كل زاوية وفي كل بستان

ولم تكن هذه العصابات في البساتين والزوايا فقط بل كان القسم الاكبر منها على العروش وفي دسوت الاحكام

ولما لم يكن لهؤلاء الاشقياء شيء من القوة كانوا يسودون على الناس بالتخويف والارهاب — فكانت البلاد كلها عبارة عن لصوص صغار يأتمرون بامر لصوص كبار وكانت الحياة معركة دائمة يقتل فيها المسلم نصرانياً في اليوم الاول فيقوم النصراني في اليوم الثاني ويثأر لصليبه بقتل احد ابرياء المسلمين كأن صليب السلام تحوّل الى راية شعارها الدم والنار !

هل تخاصم مسلمٌ مع جار له وقتله ؟ فكانت التهمة تقع على رؤوس المسلمين اعداء الصليب ...

هل افترس ذئب احد الرعاة المسلمين ؟ فكانت التهمة تقع على رؤوس النصارى اعداء الاسلام ...

وفي احد الايام رأى اجدادنا حورية جميلة رشيقة القوام خارجة من الامواج وكان لها شعر ذهبي طويل وعينان ذهبيتان صافيتان وعنق جميل كالبلور قائم على اكتاف كانها الرخام المصقول وكانت مرتدية وشاحاً شفافاً له اردان تخيوط الذهب وقد لفته على جسمها الجميل بهيئة تماثيل اليونان وكان ناعماً ناعماً يحاكي الهواء او بخار الماء .... ولما رأت هذه الحورية الناس وشقاء الناس ارسلت من عينيها الذهبيتين دموعاً كانت كحبات اللؤلؤ

وبعد ان استنزفت كل الدموع التي كانت في عينيها نظرت الى الحراس حولها — وهم طوال القامات بيض الوجوه ذوو شعور ذهبية — وقالت لهم : اني حزينة ياخواني ، حزينة على حالة هذا الشعب ،هلموا نتعاون ونخفف شيئاً من آلامه

فقالوا لها :ايتها الحورية الجميلة انما نحن اخوانك ومساعدوك ،نحن جيوش متحدة انتدبتنا السماء ووضعتنا بين يديكِ ونحن من زمان نكافح الحرب بالحرب ، وقد تعبنا من مكافحة الحرب بالحرب . وماذا تفعل حرابنا و بنادقنا امام اشعة الحب المنبعثة من عينيك

فطافت اذ ذاك الحورية في الشوارع والاسواق وكانت تبشر بالحب والاحسان ، فلم يسمع صوتها الناس لان عويل النادبين وحشرجة المائتين اصمّت اذانهم ، ومنظر الدم اعمى عيونهم — صمٌ بكمٌ عمي لا يسمعون ولا ينظرون !

فلم تيأس الحورية بل ظلت تسير بين الجبال والاودية واعظة مبشّرة، وفي احد الايام رأت في بيتٍ بعيد على رأس جبل كأنه عشٌ للنسور ولداً صغيراً يبكي فوق جثث ابويه واخوته، وكان اسم الولد احمد،فاخذته ووضعته في هدب ثوبها وسارت به على جوادها تنهب الارض نهباً

وفي فجر اليوم الثاني استيقظت مع الطيور ورأت على عتبة بيتها ولداً صغيراً مطروحاً بين حي وميت وقد قُتِلَ اهلوه في المنفى فاتى به ابناء السبيل ورموه على باب الحب والاحسان

وكان اسم الولد سركيس

فحملته بين ذراعيها ، وكان يرتجف برداً ، وقالت له لا تبكِ ياحبيبي ساضعك في كنف حبي وحناني فلا يصل اليك الاشقياء

ثم ذهبت به الى السرير حيث كان نائماً يتيم الامس بين الستائر الحريرية الناعمة فوضعته الى جانبه وقالت لهما ناما كاخوين

ولم تمضِ ساعة ، حتى سمعت صراخاً غريباً فهرولت ورأت الطفلين يختصمان كأنهما شبلان صغيران

فتنهدت وغسلت الدماء وضمدت الجروح واخذت الولدين بيديها الى جنة قريبة فيها ازهار عطرية وفاكهة ذهبية فقطفت الورد وضفرت منه اكليلين كللت بهما راسيهما وقطعت اغصان الفاكهة وقالت لهما : « العبا كاخوين »

ولم تغب دقيقة حتى اشتبك الولدان فداسا الزهور ورميا الفاكهة الى الغدير ونزلا برقاب بعضهما نهشاً وعضاً

فرجعت وغسلت الدموع وضمدت الجراح وحبست الولدين في غرفة وقالت في نفسها سألهيهما بالعمل ثم وضعت بين يديهما الاقلام والدفاتر ولم تتجاسر ان توصيهما بالحب والاخوة بل قالت لهما « اعملا »

وذهبت فلم يعملا بالوصية بل كسرا الاقلام ، ومزقا الاوراق واشتبكا من جديد

فيئست الحورية وقالت لا شيء يؤثر بهذين الشبلين . لا وعد ولا وعيد ولا غنى ولا دلال . ولا ازهار ولا اثمار

ثم وضعتهما على ركبتيها وسكبت من عينيها الذهبيتين لؤلؤتين سقطتا الواحدة

على عنق سركيس الابيض والثانية على جبين احمد الاسمر

وفي تلك الدقيقة لامس الحنان قلبيهما فتعانقا وبكيا واختلطت دموعهما بدموع الحورية التي تبسمت وحلّت وشاحها والقته على الولدين وقالت بصوت كأنه آتٍ من عالم بعيد

اتحدا كاخوين . الاتحاد سر القوّة والاخوّة سر الهناء

. . . .

وغابت الحورية بين الامواج ولم يرها سركيس ولم ينظرها احمد الا في الاحلام . على انهما حفظا لها الحب والجميل وحافظا على وشاحها كما يحتفظ المسيحي بقطعة عود الصليب فكان لهما بياض الوشاح رمزاً لحسن النيَّة ، وزرقته رمزاً للامانة ، واحمراره رمزاً للحب الخالص الكامل

. . . .

وتوقفت العجوز البيضاء عن الكلام وسكت صوتها المتهدّج

فاقترب منها صغير الاولاد وقال لها بلهجة الولد غير المصدّق

— وهل هذه الحكاية صحيحة ياجدتي ؟

فتبسمت العجوز وقالت ياولدي ان جدّة ابي عاشت مئة سنة وهي روت لي هذه الحكاية عن جدتها وجدتها عن جدتها عن جدودها عن اساطير الاقدمين والله اعلم ....

ويومها العصيب ...

في يوم ممطر من الشتاء الماضي صعدت الى الحافلة التي يسمونها الترام، شققت لي طريقاً بين الصدور والمناكب وعليها المشمعات تقطر ماء فوصلت الى مقعد جلس عليه ثلاث سيدات احداهنّ آنسة كريمة تشتغل في احدى الدوائر المحلية وقفت حالما رأتني الى جانب النافذة واشارت اليّ ان اجلس في مكانها الصغير

— اشكركِ لستُ تعبة

— اراكِ تتعبين من الوقوف في الترام، اما انا فمنذ سنتين اقطع هذه المسافة اربع مرات في النهار وكثيراً ما اقطعها واقفة . اجلسي . .

نزلت من الترام وانا افكر بكل الموظفين، والتجار، والطلبة الذين يدخلون الترام اربع مرات في النهار فيُحشرون ويتذمرون ويظلون صابرين! . . .

وجاء الصيف فذهبت الى الاعالي . ويوماً جاءني شابٌ يقول احمل نبأ اعرف انه يسرّكِ

— هات

— اعتصب الشعب على الترام

وفتح امامي الجرائد وفيها بخطوط عريضة تفاصيل الحركة الشعبية المباركة يا للحركة الهائلة في حلاوتها، الحلوة في هولها كيف كانت تكهرب

كيانا وتهزّه هزّا ...

وكم ردّدت في تلك الاونة قصيدة الريحاني المشهورة :

« ويومها القطوب العصيب

وليلها المنير العجيب

وصوت فوضاها الرهيب

من هتاف ولجب ولجيب

وزئير وعندلة ونعيب ... »

وقالوا انتهت مشكلة الترام فخطر في بالي ان اجرّب ، فصعدت الى تلك التي تسير على طريق الحرش وصعد ورائي سربٌ كبير من النساء وبما اننا اصبحنا متمدنين نهض الرجال — بارك الله في اصلهم — واعطوا اماكنهم للسيدات ثم انهم (كدت اغلط واقول تفرقوا) ثم انهم انحشروا قرب السائق و بين المقاعد وكان عددهم يزيد عن العشرين

وجرت الحافلة ، باسم الله مجراها ، جرت بعنف وشدة فاهتز الرجال في مواقفهم ووقع بعض من كان بين المقاعد على اللواتي كنّ عليها. وهنالك شيخ لطم راسه بلوح الباب لطمة كادت تذهب برشاده .. ووقف الترام فشققنا نحن السيدات طريقاً لرؤوسنا واكتافنا بين الرؤوس و بين الاكتاف

وادرك شهرزاد الصباح فسكتتْ عن الكلام المباح

صوت الأمّ

ونحن ، لنا كلمة في القمار وضريبته · وصوتنا — وهو الصوت المختفي طيلة الدهر —هو اليوم صوت العائلة الوطنية المحتضرة تحت ثقل الازمة الاقتصادية ، المحترقة بلهيب الثورة الاجتماعية، المجرورة بتيار اللهو والزهو الى الموت المحتَّم

قالوا ان في المسألة تعزيزاً للاصطياف · فنحن النساء بسيطات العقول لا نفهم الا الصريح من القضايا، نقول ، اما ان يكون لبنان مصيفاً كسويسرة او مقمرة كمونت كارلو

فالحالة الاولى قريبة المنال وهي تتم بتحسين اداري طفيف تقدر عليه الحكومة اذا شاءت لان زبائنها — اي زبائن الاصطياف — هم جيراننا السوريون والمصريون الذين انما يفدون علينا في الصيف لاكتساب العافية لا لتبذير الاموال

اما الحالة الثانية وهي جعل لبنان مونت كارلو فبعيدة المنال لان كبار اللاعبين من اميركيين واوروبيين لن يتركوا مقامرهم الجميلة وفيها التسهيلات المعروفة ليأتوا للمقامرة عندنا · بقي ان زبائن القمار ، اي زبائن الضريبة الجديدة ، سيكونون من الوطنيين ويؤيد هذه الفكرة السماح بالقمار في بيروت التي ما كانت في زمانها مصيفاً · وفي هذا حكمة لا تفهمها عقولنا البسيطة

قال كبير ان من وراء ضريبة القمار ايراد قد يبلغ المليون وهو رقم لا يستهان به

لنفرض ان ايراد القمار بلغ العشرين مليوناً تحوّلت كلها الى تحسين الطرقات . فنحن قوم قانعون بشوارعنا الضيقة القذرة ولا نريد اصلاحاً موقتاً وطلاء لمّاعاً يجيئنا من فضلات موائد القمار التي يبيع عليها رجالنا ضمائرهم وصحتهم وسعة صدورهم وعقولهم فيكون ربحنا — نحن النساء — الشقاء الدائم والحرمان الاليم

اذا كان رجال هذه الامة يخافون الدفاع فنحن ندافع عن كيان الامة الادبي ، نحن نحافظ على بقايا ارث قديم تركه لنا الجدود وهو الفضيلة الشرقية

ليس من يشك في حسن نية الذين يودون تكثير الايراد ، لانهم كلما طلبوا اصلاحاً وجدوا انفسهم امام العقدة التي لا تحلّ وهي عجز الميزانية ولكننا نسترحمهم ان لا ينشطوا القمار في هذا البلد الذي سماه الشرق بلد المعاهد والمدارس

تريدون ضريبة جديدة ؟ اضربوها على اعناقنا ونحن النساء نرضى بان ندفع الخراب عن الامة ونفخر ان نكتب صفحة خالدة في سجل الوطن الجديد

نحن نقصي عن شبيبتنا خطر القمار الذي لم تبتل به بلد كما ابتليت بيروت ونشتري دموع الاطفال والامهات والزوجات اللائي ستلقى حظوظهنّ رهن شفاه المقامرين فيرُبطن — بسبب تنشيط القمار — الى مواكب البؤساء ، وهم كثرُ

الحاكمية الوطنية

اذاً للحاكمية الوطنية اخصام ومريدون ؟ ولها من يقول بها ومن لا يقول؟ لولا هذا لما كان هذا الجدال في امةً صغيرة يجتمع سكانها ويحشرون – بسهولة – في زاوية من زوايا العواصم الكبيرة …

ولكننا على ضآلة شأننا نعرف اهمية هذا الاقتتال علينا والا فما كان لهذا الدلال من سبيل ومن وجود · ولعلنا – من دون ان ندري – ندين بدين اصغر مخلوقات الله ونعطف على النملة الصغيرة المخورة في بيتها الحقير نخر العقاب في وكره

الحاكمية الوطنية ؟ لو تسمع اخصامها يصفون لك ويلاتها لقلت ان الامة ستغوص في الدم يوم تخطئ المفوضية وتجرّب فينا هذا الدواء

يقولون :

ان الارثوذكسيين والمسلمين – وجلهم ناقمون لانهم في هذه الحكومة يعاملون كما لو كانوا اولاد الجارية – لن يرضوا عن حاكم ماروني · والدروز – ولهم تاريخهم في حماية العرين – لم يزالوا بشراً ولهم اطماع البشريين

والموارنة لن يتنازلوا عمّا يعتبرونه حقهم الصريح لان فرنسا انما جاءت الى الشرق من اجلهم ····

فاذا حصرت الحاكمية في احدى هذه الطوائف لا نأمن النقمة العامة ثم الفوضى ، ثم الثورة

يقولون :

ان الحاكم الافرنسي – اي القومندان ترابو – لم يكن مهاباً لاجل شخصيته بل لكونه « ابن فرنسا » ووراءه جيوشها وزحافاتها وطياراتها ٠ فشخصية الحاكم الوطني – هذا اذا وجدت – لا تكفي بل يلزمها دعامة ٠ واين هي ؟

يقولون :

يوجد اقليات ناقمة قد تسيطر على الحاكم الوطني بالرشوة او بغيرها فيميل الى خيانة لبنان و ٠٠٠ خيانة فرنسا

ويقولون :

لا عبرة في الحاكمية وطنية كانت ام اجنبية ٠ الجوهر ان يكون الشعب هو المسيطر على مصيره ، وان يسير الحاكم بارادة الشعب

جميلة هذه الامنية ٠٠٠ لو لم تكن غرّارة كالسراب ٠ لنصرف النظر عنها ولنتآلف – صفقة واحدة – مع فكرة اساسية هي اليوم حجر الزاوية ٠ الادارات والمجالس والبلديات والحكومة كلها وكل صامت وناطق هو قيد ارادة المفوضية ٠ والحاكم وطنياً كان ام فرنسياً لا يخطو خطوة الا باشارة امين السر العام

هذه الحالة ستظل مرعية الجانب حيناً لا يعرف مقدارها فاذا لم يكن لنا بعد حق السيطرة على امورنا فلينصبوا لنا حاكماً وطنياً يكون الرسول الامين بيننا وبين رجال الانتداب ليجعلوا لنا حاكماً وطنياً يرفع الى المفوض السامي اماني الشعب كما يسمعها باذنه وبقلبه

اجعلوه بلدياً نعرفه ويعرفنا فلا نقف على باب الاجنبي كمن يطلب صدقة خذوه واسع الثروة فتأمنوا الرشوة ، اصيلاً لا سبيل للصغارة الى نفسه، قيدوه بقانون يؤمن الطوائف على مالها و ينص على عزله اذا هو سعى الى الخيانة . . .

اما النقمة فالفوضى ، فالثورة ، فهي ادواء لها عند السياسة دواء . والحجج في غير هذا واهية كخيط العنكبوت ، والدعامة الدعامة هي فرنسا اولاً وآخراً هي تحمي لبنان يوم يكون حاكمه فرنسياً ويوم يكون وطنياً لان من صالحها ان تحميه وما تنصيب الحاكم الوطني سوى برهان جديد على عطفها وعلى حبها للحرية لها اولاً ثم للناس

اما الخوف علينا من ان نأكل بعضنا فماذا نقول فيه ؟ دعونا نضحي مصالحنا الفردية في سبيل الخير العام . دعونا نتعلم على حساب انفسنا دعونا نسقط وننهض ، وننهض ونسقط الى ان تعلمنا هفواتنا ان الله في السماء والجار قرب الجدار

واذا حدثت بعض الضحايا فلماذا ننادي بالويل ؟ لماذا نعتقد ان الوطن يبتدي وينتهي عند باب الصندوق ؟ ان حذر المتطيرين يدل على خوف ، ومتى كان الخوف من شيم الرجال ؟ نحن نتشائم نسبة الى افكارنا الحذرة على مصالحنا (الفردية) ولو فكرنا لجابهنا الشر واقتلعناه من اصوله .

هي خطوة نحو الاستقلال فلنخطها ولنضحِّ في سبيلها ولا نقولن يجب ان ننتظر حتى نتمرّن على الحرية ، ان احسن مدرسة للاستقلال هي (الاستقلال)

من المسؤول؟

... ورفع نائف الكلاّس الى المشنقة فانقطع به الحبل. فأُمِر بحبلٍ ثانٍ وعاد الجلاد الى عملية القياس والربط والتعقيد .. والمجرم الذي مات مرة ينظر ويسمع ... ورأى من لا جلد لهم على تهدئة السنتهم مجالاً لابداء الآراء فبدأوا يتفلسفون بالكيفية والنوعية

ورأى المصورون فرصة ثمينة فصوبوا الفوهات الامينة لخطف السر، سر عذاب المجرم الرهيب

والتصق نايف بالارض واخذ يبكي ويبكي ويبكي والمتفرجون ينادون ببرودة عاجزة العفو! العفو! والبعض يودون لو يسرع الجلاد فيهدأ خفقان قلوبهم، لان هؤلاء المبكرين قبل الفجر للارتواء من منظر النطع يخافون على قلوبهم الفضة من ضربة سريعة ...

وظل المسكين لاصقاً بالارض وتحوّل بكاؤه الى نحيب فشهيق. وتلك الساحة تغصّ برجال تحجرت فيهم الحياة فسمّروا في اماكنهم فما فيهم جريء تغلي فيه دماء الرحمة والشباب فيكهرب من حوله من الرجال فيحتملون المجرم ويسيرون به هازجين بطلب الرحمة

الرحمة! الرحمة! تمتم القوم يوم وقف قاتل الخمسة امام القضاء واخذ يحكي ببساطة الاطفال حكاية بؤسه وشقائه

كيف قتل اخوه وبقي القاتل حرّاً طليقاً، وكيف كان والد القاتل يقطع اوصاله بانواع الظلم والقسوة، وكيف رآه يوماً يضحك من عجزه

ويعبث بقلبه المكلوم فثار جنونه وقتله وهو لا يدري كيف قتله ومن قتل معه !

وسار المسكين الى الاعدام وحوله كهان صلاّح يسندون قواه ويحثونه على طلب الرحمة بكل ما حفظوا من اقوال اله المحبة

لعلهم شعروا بجرم ذلك الكاهن فجاؤوا يكفّرون امام الله وامام الناس؟

وبكى ذلك المسكين ثم بكى وطلب الرحمة لانه غير مسؤول

....

وسرى العبث بالموت من الكبار الى الصغار . وكما يتسابق المئات من الرجال والنساء الى ساحة الاعدام وقف منذ ايام عشرة من الصبيان والبنات يلعبون « بالمشنقة »

ولما كانوا اناساً ولهم من العسف ما للناس فتشوا عن فريسة « مستضعَفة » فوقع اختيارهم على زرزور مسكين ربطوا يديه ورجليهِ ثم علقوه بخيط الى شجرة وهموا بشده على عنقه . وباشارة خفية من « الزعيم » رفع الاولاد ايديهم واخذوا يصرخون الرحمة ! الرحمة ! فترة كان فيها (الجلاد) قد شد الخيط فقضى الزرزور المسكين . فقال الزعيم البارد لطالبي العفو لقد فات الأوان

وانتهت الرواية بضحك شديد فسَّر لي قساوة الانسان ذي الانياب والمخالب

قصة تافهة وعادية ... ولكن كم هي شبيهة بحكاية الجلادين الحقيقيين يسلمهم القضاء اعناق الناس فيلعبون بها كما يلعب الاولاد بالمشنقة

من المسؤول ؟ من المسؤول ؟

هو دوي يجيش منذ ايام في اذني وله في كل ساعة طنين ورنين

افتح اليوميات فاقرأ اخبار (موسم الاعدام)

وافتح الجرائد المصوّرة فارى رسوم المشنوقين تتوالى عدداً بعد عدد

وافتح اللطائف المصرية فاذا الرسوم قد قطعت البحار وتصدرت في صفحاتها

يالفظاعتك ايتها الآلات الخاطفة لامرار الموت واسارير المجرمين المرعبة

يالقساوتك ايتها القلوب المتفرجة وانت ايتها الايدي الباردة التابعة حركات الحبال ربطاً وتعقيداً وخطوات المشنوقين صعوداً وهبوطاً ثم صعوداً وهبوطاً

. . .

من المسؤول ؟ من المسؤول ؟

هي كلمة اراها كل يوم والى جانبها علامة استفهام كبيرة لاتبرح ملازمة لفكري ولافكار الكثيرين . . .

ادارات عظيمة ضاعت فيها المسؤولية . ولنا على هذا في كل يوم الف دليل . وحاكم — رافقه عفو الله حيث هو — لا يدرى من يتبع وكيف يسير . طائفيات تتطاحن ، وزعماء يبهرون البسطاء بجيوش لهم وهمية ، جيوش من الاتباع لرنة الطائفية يطربون ، او بالوعود يتبلغون ، واحزاب فردية ألفت حكم الاقطاع وأسه احتيال الفرد المنبوذ من السلطة للوصول الى ذروة بفعل ما ينصب من الحبائل . ومفوضية — وقاها الله ووقانا من سوء المظنة —

تسن من الخطط ما تحسبه آية الله في العصمة وتدفعها الى الحاكم فيطبقهاوسط هذه الفوضى ، فوضى الطائفية ، والزعامة الوهمية ، والنزعات الفردية

تحاملاً مراً يسمع المرء اين ذهب · وتبرماً من عسر اقتصادي ومن موات في صناعة وطنية قتلها نفوذ المصنوعات الغربية · وتحسر على الخسارة في ما تقتله الريجي والمكوس والاجور · وهنالك غيرة قاتلة تمتلك قلوب العاجزين عن الوصول الى حقهم · كل هذه عوامل تؤثر في الشعب فيتحول تبرمه من انتقاد الى تهكم ، الى عبث بالانظمة ، الى تطاول على سلطة يرى فيها العجز والاهمال

في قرية من قرى البقاع مامور نشيط شُهد له بمزايا وفضائل ندر ان اجتمعت في رجل · سار هذا المأمور الى حانوت رجل دأبه العبث بالنظام وفرض عليه ما يقضي به القانون · فثار غضب الرجل واقسم ان ينتقم ·ومضت ايام قلائل فاذا بالقرية تفاجأ بنقل الموظف الى اردإ مركز في لبنان الكبير هذا وصاحب الحانوت يفخر ان نسيباً له في خدمة موظف كبير سعى لدى سيده فكان ما كان

مهما يكن في كلام الرجل من دعوى قد تكون كاذبة وقد لا تكون ، فقد صدق اهل تلك البقاع ان حظوظهم وحظوط سائر الناس هي قيد غضب الطباخين والحجاب ··· وكيف لا يصدقون وقد لمسوا الدليل ؟

يخطىء زيد الى النظام او لا يخطيء فتدسه السعاية في السجن — كذا كانت الحال منذ ايام — فتأخذ اوراقه بالتنقل من دائرة غير مسؤولة الى دائرة غير مسؤولة ويظل هو وذووه اسرى العذاب ما شاءت السعاية وشاء

الاهمال · ويعتبر سواه بما اصابه فيهرب من وجهِ الحكومة اذا هي طلبته ،واذ يطارده رجالها يعتصم بالجبال ثم يجوع فيعمد الى سلب الناس ، وبينما هو يسرق ليأكل يسمع اطلاق النار فتهب الحياة فيه مدافعة عن نفسها وفي دقيقة يصبح القروي الآمن مجرماً

فمن المسؤول ؟

المفوضية غير مسؤولة لانها لا تدري

والحاكم غير مسؤول لانه يسير في الظلمة

والشعب غير مسؤول لانه مكبل بسلاسل العصور الخوالي

اصبروا ايها الناس ! اصبروا على العسر والجرائم والاعتقال والفوضى

اصبروا ايها الناس حتى نقطع سلاسل العصور الخوالي · ومتى زالت عنا سمات النخاسة نعلّم المفوضية ان تدري · واذ تدري ترفع بيدها مشعل النور فيستنير الحاكم ويطمئن المحكوم

موجة السرور الكبرى

نحنُ في هذا الشرق لفي جوع لجوج الى امور عديدة يتمتع بها الناس وينعمون، بينما جماهيرنا – شهود مرقص الحياة الاكبر – تبكي حيناً، وتندب حيناً، وتغص حيناً. وكم من الاحيان تلسعنا عقارب الغيرة من امجاد الامم، ومنعة الأمم، وسعادة الأمم، فننكمش على نفوسنا، وقلوبنا تغورُ فيها البغضاء وتفور، حتى اذا ما لامس فكرُنا فكرَ اوّل غربيّ نراه، صببنا رشاش غيرتنا الآكلة وما يلتصق بها حتماً من نفور، وحذر، وتعصُّب، وبغيضة «شرعيّة» فيهزّ الغربي اكتافهُ ويقول:

«لا خير يُرتجى من الأمم الشاكية، الأمم الغارقة في سويدائها، الموسومة – على جبين شبانها – بطابع الخيبة والهرم الباكر»

لا شكّ ان الحياة هي للشباب الزاهر، وانّ امة لا تغسل احزانها امواج السرور الكبرى، لهيَ امة تمشي الى الفناء. فاوّل ميزات الحياة وآخرها هي «الحياة» والحياة شيء غير الانكسار، فالخيبة، فالذلّ، فالبكاء

أجل إننا في حاجة وجيعة الى السرور والطرب. ولكن كيف نطرب وكل من حولنا يبكي. لقد تعالى بكاؤنا فغطّى بنعيبهِ كل اصوات الطبيعة الضاحكة حولنا دواماً. فهذه السماء الزرقاء، الزرقاء كعيون الاطفال المذهّبة الشعور، وهذه الشمس اللامعة، والاشجار المخضلّة الى مديد من الايام عديد، وهذه الزرازير المصفرة في اعالي الصنوبر، والطيور المنشدة فوق دوالي العنب واغصان التين، والغدير المهمهم بين الاعشاب، والشلاّل الصارخ فوق الصخور

وامواج الهواء المهينمة في الغابات ، كل هذه تنشد انشودة الحياة زاهيةً طربة ونحن وحدنا نبكي

ولآدابنا العربية ، بما يتبعها من شعر وموسيقى وإنشاد ، اليدُ القاهرة في تكييف نفوسنا على الحزن والأنين ، ولا عجب فآداب الامم هي صورة حيّة رُسِمَت فيها مشاهد حياتها على توالي العصور · وهل في حياتنا — منذ عدة مئات السنين — سوى مشاهد الأسر والذلّ والفقر والحرمان ؟

واليوم ، وقد نفخت في الشرق روح نهضة جديدة ، واصبح الشيخ والكهل والطفل يشعر بحاجة الى « كرامةٍ قوميةٍ » اليوم تدخل آداب لغتنا في طور جديد · فشعراؤنا ينشدون القصائد الحماسية ، واطفالنا في المدارس يغنّون القدود الوطنية ، ولكن طابع الحزن القديم لا يزال في مكانهِ · فهو من هذا القبيل لازم الوجود ، نختم « المندوبين السامين » على كل قرار يتعلّق راساً بمرافقنا الحيوية في سوريا ولبنان وفلسطين

خذوا مثلاً هذه الانشودة :

لكِ يا ارضَ الشآمِ مهبط الوحي المجيدِ
من فوآدٍ مستهامِ خالص الحبِّ الاكيدِ
كلما هبَّت علينا منكِ انفاس الجبالِ
فذكرنا الغابرينا من مشاهيرِ الرجالِ
هاجَ في القلبِ حنينا ذكرُ ايامِ الجدودِ
فجرى الدمع سخينا كالدِّما فوق الخدودِ

قرار

نحن جبلنا من تراب الانبياء فلنكن للمعالي شهداء

انشودة حماس مع ما فيها من الدموع السخينة ... ولكن اللحن ؟ أشهدُ انني لا اسمعهُ مرةً الا وتتغلغل في نفسي حاسات القهر والأسى ممزوجة .. فيمرُّ في خيالي مشهد امٍّ تحتضر باكيةً على اطفالها ، او مشهد جنازة صغيرة تسير الهوينا حول عربة صغيرة تحمل نعشاً صغيراً أضجعَ فيهِ طفل صغير

. . . .

وفي قرية الدوّار الصغيرة ، المختبئة بوداعة خلف اكمة ظهور الشوير ، ذلك المصيف الفخور بجلال باسقاتهِ ، وجمال بناتهِ ذوات العيون الذبّاحة ، في قرية الدوّار بيت صغير ساكن مختبىء — مثل الدوّار نفسها — بين الاشجار الكثيفة الخضراء

لا عيال في هذا البيت ، انما من حين الى حين تجتمع فيهِ طائفة من الشبّان فيلهون ويطربون ويسكرون وعندما يبلغ رنين الاقداح حدّهُ الاقصى تخفت اصوات الشاربين ويرتفع وسط سكون الغاب انين الاوتار الشرقية يرافقها صوت شجيّ اظنّهُ يغنّي على الحبّ

انني ادري لماذا نبكي حينما تهزّنا عاطفة القومية . ولكنني لا ادري لماذا تبكي الاوتار تحت انامل شبّان يلهون ويطربون وينشدون انشودة الحياة الكبرى

ولعلّ الحقّ في هذا على شعرائنا وادبائنا ومنشدينا الذين لا يؤدّون رسالتهم في حياة الأمة كما يجب ان تؤدّى

ان حياتنا الشرقيَّة في حاجة الى انواع جديدة من الأدبيات ولعلَّ الزمها هو الانشاء الزاهر المطرب الذي اذا قرأناه فاضت علينا موجة من روح الكاتب الطربة فبرَّدت نار الحزن الكثيف اللاهبة دواماً في حنايا ضلوعنا

واذا جاز لي في هذه الرسالة ان اصف سركيس[1] قلت انهُ هو نفسهُ موجة سرور كبرى وحياتهُ كلها طرب وإطراب وضحك وإضحاك

إنهُ ابتكر لنفسهِ طريقة في الانشاء لم يأتها قبلهُ كاتب سوري او لبناني وتوفَّق الى بدائعها . وقراؤهُ مدينون لهُ بساعات طويلة تنغلت فيها اعصابهم من سلطة الطوق الحديدي وتغتسل في موجة زهوٍ يطلقها عليهم «سركيس الضاحك»

وبعد ان يشبعهم طرباً وسروراً وضحكاً ينفخ فيهم نسمة من نسمات التجدُّد مؤدياً رسالتهُ دون ان يدري

---

(١) كتبت خصيصاً للعدد الممتاز من مجلة سركيس المطبوع في بيروت في صيف ١٩٢٣

حياتنا الاقتصادية

١

يحكم عالمنا الاجتماعي على المرأة بعدم التعرّض لما لا يعنيها والاقتصار على ما يعنيها . وهو يحكم حكمهُ هذا بداهة دون تروٍ ولا امعان . فاذا سألنا بعضهم ان يحدّد لنا هذا «الذي يعني والذي لا يعني» لما قدروا ان يحصروا نظريتهم ضمن نظام شامل عام . والحقيقة هي ان مداخلة المرأة في امور المجتمع امرٌ لا يمكن تحديده . فهو نسبي على الاطلاق

حتم المجتمع على نساء المزارع ان يفلحنَ الارض ويزرعنها ويحصدنها وان يقطعنَ الخشب وينشرنهُ ويحملنه من الجبال البعيدة الى المدن والقرى وان يسقنَ قطعان الماشية الى مسافة بعيدة لورود الماء والمرعى . ولم يقل العالم الاجتماعي في هذه الاحوال انَّ بشرة النساء الطرية لا تحتمل اشعة الشمس وان ايديهنَّ الناعمة لاتقوى على رفع الفأس

كذلك تبعت نساء الغزاة رجالهنَّ الى ساحات القتال لطبخ الطعام وجلب الماء وشحذ السلاح . وتاريخ الغزوات القديمة ملآن باخبار النساء اللواتي ما قيل لهنَّ مرةً : ابقين في الحيّ فبنيتكنَّ النحيفة لا قبل لها بالاسفار المضنكة »

وهكذا نرى النساء في المجتمع كله خاضعات – ككل الكائنات الحية – لاحكام الظروف . فامرأة الجندي تشحذ سلاحه ، وامرأة الفلاح تغرس كرمه ، وابنة الراعي تجوب البراري امامها سائقة مئات الانعام

حدّثني اديب عن سياحة له في نواحي الاردن قال :

« رايت مرة في صحراء خاوية مقفرة فتاة في الخامسة عشر من العمر تسوق مئات من النوق . فكانت على ظهر ناقتها كاحد كبار الفرسان بقوام منتصب كالرمح ووجه عزيز فخور

اما ثوبها فكان شبه قميص مفتوح من العنق الى اسفل الصدر ينمّ عن تكوين لم ترَ العين ابدع منه . فعجبتُ من وجود الفتاة منفردة في قلب تلك البادية واقتربت منها اطارحها السلام واسائلها عن حالها فكانت تجيبني بحرية ولطف ورقة وكياسة لم ارها في امرأة غربية او شرقية »

وما يقال عن نساء البداوة يقال عن نساء الحضارة . فنساء الطبقة الفقيرة في بلادنا قد زاولن منذ زمان المهن الاولية — ولا اقول المهن الحقيرة فليس من عمل حقير على الارض — كالخياطة والكوي والرضاعة والخدمة في البيوت ثم نزلت نساء الطبقة المتوسطة الى ميدان العمل فكان منهنّ المعلمات ثم الممرضات والصحافيات وبعض الطبيبات ولا تزال دائرة العمل تتسع امام من تضيق بوجههنّ اقتصاديات الحياة فلا يمرّ علينا عشر من السنين الاونرى النساء الوطنيات مهتمات بمسائل الاقتصاد مقتنعات ان الحرية الاقتصادية هي امّ كل حرية بشرية

نرى مما تقدم ان حكم العالم الاجتماعي على المرأة وحصره اياها ضمن دوائر ضيقة ليس من الشرائع التي لا تزول قبل ان تزول الارض والسماء فحالة المرأة خاضعة دائماً وابداً لحالة الاقليم ، ولحالة المحيط ، ولحالة الظروف اي انها نسبية في كل زمان ومكان، تابعة لناموس التطوُّر ككل التقاليد ،

وكل الشرائع التي اتَّبعها الانسان منذ وجد الى اليوم . وليس لكائن ان يقول « هذا يعني المرأة وذاك لا يعنيها » اذ كل ما يهمُّ الامة يهم المرأة

فكل الابحاث التي يطرقها الرجل معتقداً ان الوقوف عليها يفيده ويفيد الامة يمكن للمرأة ان تطَّلع عليها وتدرس جزئياتها وتلقنها لاولادها وتباحث بها صديقاتها

ان العراك الناشب اليوم في العالم هو عراك اقتصادي ، والامم تدافع عن اقتصادياتها — رجالاً ونساء — بشدة تشابه الكَلَب ، فلا ندري لماذا تبقى المرأة عندنا بمعزل عما يجري حولها ولماذا ينفرد نصف الامة في هذا العراك بينما يقف النصف الاخر متفرّجاً وهو قادر ان يؤدي مساعدة كبرى لذلك النصف الذي يناضل وحده في ازمة تقصم الظهور وتقضي عَلَى الانفاس

اقول هذا ناظرة الى الوجهة المادية من هذه المسالة التي لها وجهة ادبية لا يجب اغفالها . ان باطلاع الرجل وحده على معلومات نافعة واحتفاظه بها لنفسه ظلماً للولد عميماً .

اقول ان الرجل الذي يحتكر المعلومات لنفسه — ان كانت هذه المعلومات نظرية او عملية — يمنعها عن ولده شاء او لم يشأ . ان حاضنة الولد ومهذبته ومرشدته ورفيقته هي المرأة اولاً والمراة آخراً . فلو سألنا كل رجل من رجال عصرنا عالماً كان ، او تاجراً ، او لغوياً ، كيف تعلمت ما تعلمه لاجاب فوراً :

« لقد تعلمت على حسابي »

ان رجالنا الذين يتعلمون على حساب نفوسهم فضلاً كبيراً لو ندري ٠ لانهم يبدأون حياتهم كما بدأها جدنا الاول وعندما يصلون الى زمن العمل يرون المسافة التي قطعها الغربي فينشطون للحاق به ، وكم من زلة ، بل كم من كبوة وهفوة يلاقون الى ان يصلوا — وغالباً لا يصلون قبل الخمسين — الى حيث وصل ابناء الغرب ٠ فهم يختبرون ، في مدة ثلاثين سنة ، ما اختبره الغربيون في اجيال ، على انهم ينسون جهادهم الطويل و يتركون اولادهم يتخبطون في مثل ما تخبطوا هم به ، وبكلمة اخرى يتركونهم « يتعلمون على حسابهم »

وانها لهفوة كبيرة يعرف مقدار ضررها كل من تعلم على حساب نفسه

علينا ان نسلم لاولادنا اختباراتنا ومعلوماتنا ، اعني على اولادنا ان ياخذوا عنا خلاصة ابحاثنا طول العمر فيبدأون حيث انتهينا لا حيث بدأ رعمسيس ويكون جهادهم في الحياة خفيفاً ، لذيذاً ،منظماً ، لا مضنكاً ، قاتلاً ٠ وليس من يعدُّ الولد للعراك في الحياة مثل امه ٠ فكيف تعدُّه هذه الام للحاق بابيه اذا كان بين رقيها ورقي زوجها بون هو نتيجة اختباره ثلاثين سنة ونتيجة حصرها في دائرة صغيرة من التافهات تعرفها الانعام بالسليقة

ولقد بدأنا نشعر بحاجة الى الامور الجدّية كما اصبحنا نملّ من الابحاث النسائية الضاربة دائماً وابداً على انغام الخيال ووصف الطبيعة وواجبات المراة ، التي سمعناها الوفاً من المرّات ، وكدنا نكره من اجلها الخيال ، والطبيعة ، حتى والمرأة

٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠



هل رأيتم مرةً حديث نعمة يقلد الاغنياء والامراء ؟هل نظرتموه مرتجفاً مرتبكاً غريباً في قصره وبين ضيوفه حتى وفي ثيابه ؟ فكما يلقّب من ينام فقيراً ويصبح غنياً « حديث النعمة » يلقّب من يدفع بغتةً من ظلمة القرون الوسطى الى نور العلم العصري « حديث العلم » و« حديث التمدن » و « حديث الرقي »

ان كل ما نأتيه يجيء ناقصاً ، متقلقلاً ، مرتجفاً . ذلك لاننا حديثو العهد في المدنية الغربية التي طمى سيلها علينا فاضطررنا الى قبولها دون استعداد نحن حديثو العهد في هذه المدينة وحداثة عهدنا تظهر في كل مظهر من مظاهر حياتنا . في حياتنا السياسية وحياتنا العلمية وحياتنا الفنية . وقبل كل شيء نحن حديثو العهد في حياتنا الاقتصادية والبلاء العميم هو ان مجموعنا يجهل ذلك ، فهو اذا تألم من الانحطاط الملم بنا يحوّل وجهة شطر الحياة السياسية والحرية السياسية ناسياً ان الحرية الاقتصادية هي الاصل وما بقي فهو الفرع

لو كان لنا حياة اقتصادية لوقفنا بنفوذنا امام العالم المتمدن وقلنا نريد او لانريد . لو كان لنا كيان اقتصادي لكان لنا كيان سياسي . ولو كان لنا كيان سياسي لما قضينا كل هذه القرون ونحن جسر يمرّ عليه الفاتحون ذهاباً واياباً

قلت جسراً لا وربي ! الجسر شيءٌ قويٌ يتعهده من يمرّ عليه بالعناية حتى لاينكسر بعد مروره فينقطع عليه خط الرجوع ! نحن طنفسة « والتعبير مؤلم » على باب هذا الشرق داستنا منذ القدم اقدام الغزاة والفاتحين والمتاجرين

نحن لم نفهم مرةً معنى الحياة ومعنى الكيان فعشنا حياةً شخصيةً فردية لا يهمّ الفرد منا اذا عاشت الامة او ماتت . نعم اننا عشنا كتجار مستقلين

تحصر حياتهم في صندوقهم فكانت هذه العلامة من ادلة انحطاطنا واي انحطاط اكبر من فقد التضامن والتكافل بين ابناء البلد الواحد

ان لهذا الانحطاط اسباباً لن اتوسّع في البحث فيها كي لا اتعدّى دائرة بحثي . على ان اكبرها هو كوننا عشنا في بلادنا غرباء لا نشعر بالوطنية ولا بالقومية . فكيف يُسأل من لا عقار له عن تعهّدِ عقارهِ ؟ اما نتائج انحطاطنا فواضحة عمّ بلاؤها سوريا ولبنان في الحرب وبعد الحرب فرأى العالم مبلغ فهمنا للحياة ومبلغ تقديرنا للقومية وللحياة القومية

انحطاطنا اساسي لا يزيله جلاء « الاتراك » ولا الاحتلال الانكليزي ولا الفرنسي حتى ولا احتلال الملائكة ! ان حريتنا الاقتصادية هي الاساس الذي تبنى عليه بناية الوطن فاين المشتغلون في هذه البناء ! اين الدوائر الاقتصادية تأتينا بالاحصاآت عن حركة الصادر والوارد ؟ اين هذه الدوائر تظهر لمجموعنا بالارقام ان البلاد التي تصدّر الى الخارج ١ وتستورد ٦ مصيرها الخراب لقد اوجدت لنا المفوضية العليا (دائرة اقتصادية) ولكن هذه الدائرة مهما قيل فيها فقد انشئت بجهاد الفرنسيين واجتهادهم . هذه الدائرة هي ككل المشاريع في بلادنا — اجنبية . هي كشركة الترام والماء والمرفأ والخطوط الحديدية وكل شيء .. هذه الدائرة أنشئت لان الفرنسيين شعروا بالحاجة اليها . الذي يحسُّ بالحاجة الى اي امر من الامور ربما يكون قد تعوّد على استعماله . وبما اننا ما شعرنا الى اليوم بضرورة دخول التجارة من ابوابها فنحن لم نزل اطفالاً فيها

سيقول بعضهم ما هذا الادعاء ؟ ألا يوجد عندنا تجار ؟ وفلان وفلان وفلان ؟ من اين جمعوا هذه الثروة

جوابي على هذا ان التاجر الذي يشتغل لنفسهِ ليس بتاجر · التاجر الحقيقي هو الذي يشتغل لنفسه وللامة · التاجر الحقيقي يحسب ان الذي لا ينبع يفرغ وان الامة التي تدفع لاوربا ـ مثلاً ـ ستة ملايين وتقبض منها مليون واحد ستفلّس بعد سنين معدودة · وما ربح التجار المعدودين المشتغلين ببيع البضائع الاوروبية الا كربح القرد الذي كان يلحس المبرد متوهماً ان فيهِ الحياة وهو بالحقيقة لم يكن يلحس الا دماء قلبه

لا ازال اذكر يوم انتهت الحرب كيف كان فرح الناس يوم بدأوا ينظرون جبال البضائع الاوروبية مكدّسة في الجمارك · انهم فرحوا لدرجة جعلتني اعتقد انها تأتينا مجاناً ! وانني اقابل الان بين تأخرنا وتقدم الاوربي عندما اقرأ اسبوعياً في التلغرافات الفرنسية هذه العبارة :

« استوردت فرنسا في الشهر الماضي كذا وكذا من المواد الاولية الفلانية اي بنقص كذا عن الشهر الذي مثلهُ من العام الماضي »

ولقد قامت انكلترا وقعدت يوم اعتصب المعدّنون واضطرت الحكومة الى شراء الفحم من الخارج فكان العالم يتتبع اخبار ذلك الاعتصاب الاسود بنفس الاهمية التي كان يتتبع بها اخبار الحرب

. . . .

لقد مات منا في الحرب جوعاً مئة وثمانون الفاً ، فلو كنا نفهم ماهية الاقتصاديات في حياة الامم لفكرنا يوماً ان قوام الاقتصاديات هو الانتاج وان الانتاج يرتكز على اليد العاملة وان موت اليد العاملة هو نذير الموت لمن لم يمت!

لو كنا نفهم معنى القوة الاقتصادية لحولنا اهتمامنا بعد الهدنة الى وضع

الاسس المالية لحياتنا المقبلة ، ولانصرفنا عن الاهتمام بالسياسيات — هذه السياسيات التي لا افكر بها الا واغرب في الضحك ، وهو ضحك كالبكاء — واسسنا الاحزاب الاقتصادية بدل الاحزاب السياسية

نعم لو اننا نعرف ماهية الحياة لدخلناها من ابوابها و بدلاً من تأليفنا الوفود للاحتجاج على تعيين هذا الحاكم وعلى تأليف تلك الادارة وذلك النظام كنا نرسل الوفود الى اوروبا للتوسل اليها بانهاء المسألة الشرقية التي بانتهائها تنتهي الحرب، وبانتهائها تعود العصابات الى السكينة ، و بانتهائها يستبدل المدفع في سهولنا بالالات الزراعية

لو كنا نعرف ماهية الحياة لعملنا مجتمعين على احياء موسم الاصطياف وحوّلنا نصف رؤوس اموالنا التي تذهب وتسمن صناديق الاوروبيين الى صناديق شركات وطنية تشتغل لتسمّن جيوب الامة

يقولون ان التجارة واقفة ! نعم انها واقفة لان المشتري هو الزارع والصانع وهذان — اذا وجدا — لا يشتريان لانهما لم ينتجا شيئاً واذا انتجا فثمن ما ينتجانه زهيد امام ثمن البضائع الاوروبية التي زادت اثمانها كثيراً بسبب نقص اليد العاملة . التجارة واقفة لان الاهالي مفلسون ولا يعود دولاب التجارة الى حركة طبيعية الا اذا تساوت في البلاد حركة الصادر والوارد . لتقف هذه التجارة ! هذه التجارة التي تغطينا بمنسوجات الغربيين ! لتقف هذه التجارة الى ان يشعر الشعب انه بحاجة الى الانتاج فيحوّل قواه الى ما يدرّ عليه المال . ولا حياة ولا حرية ولا استقلال بغير المال

. . . . .

٣

لماذا نحن متأخرون؟

ولماذا تتحكم الامم في رقابنا ؟

ولماذا نحن عبيد للغرب والنسبة بيننا وبينه لا تستلزم وجود مثل هذا الفرق ؟

ولماذا ظُلمنا فقدّر علينا ان ندفع ثمن هفوات كل الاجيال التي تقدمتنا، وهذه ديون تركيا واحدة منها؟

كثيرون يتساءلون، وربما تمضي السنون فتطوينا الارض ويظلُّ احفادنا واحفاد احفادنا يردّدون « لماذا » ؟

. . .

على ان الوقت حرج ، حرجٌ جداً لمن يفهم معنى القوّة

الوقت حرج ولا يرفع الاحمال عن اكتافنا سوى تقدمنا الاقتصادي . البلاد غارقة بالدين وهذا المدُّ لا يزال يعلو رويداً رويداً وعما قليل يأخذ بخناقنا . ونحن لاهون بالكلام نقضي اوقاتنا بالانتقاد ضمن جدران بيوتنا ، وبالاستبشار بتقلص ظل الحكم الفلاني لنستبدلهُ بالحكم الفلاني . كأن في امكان الغريب — ولو كان من سكان السماء — ان يعاملنا كما يعامل نفسهُ ، او ان يبدل بقوة سحرية هذه الحالة التي اوجدتنا فيها هفوات الذين تقدمونا

قضى التاريخ بان تنفصل بلادنا عن تركيا . وما حوادث التاريخ سوى اعمال حسابية ذات قواعد مقررة لا سبيل الى الخطأ فيها

فكما نقول ان الارقام الفلانية تعطي المجموع الفلاني هكذا يمكننا ان نقول ان مجموع الحوادث —البعيدة والقريبة— التي توالت على الدولة التركية قضت بفصلنا نهائياً عن جسم هذه الدولة ، فانفصلنا ، ولكننا لم نزل نحمل فوق اكتافنا قسماً مهماً من هفوات تركيا ومن ديونها

وقد رافق هذا الانفصال حوادث سياسية مشومة قضت بوجود جيش احتلال سندفع نفقاته المادية والادبية عاجلاً او آجلاً اما النفقات المادية فهي الملايين التي يقوم لها البرلمان الفرنسوي ويقعد . واما النفقات الادبية فهي دماء ابناء السين ، فكلما رفعنا رأسنا بطلب حق — والنفس طلاّبة — يهيب بنا هاتف في داخلنا فيقول (انظروا الى الدماء انها لاتزال طريئة !)

لو علم بعض الذين اندفعوا من اهل البلاد لتمثيل تلك الفاجعة ان روايتهم ستترك لنا هذه النتيجة لفضلوا ان يمشوا على الجمر قبل ان يلعبوا ادوارها . اقول هذا لانني متيقنة ان الكثيرين من الذين ساروا مع التيار انما ساروا عن طيب قلب وصفاء نيّة

اقرأ من حين الى آخر في الجرائد السيارة فصولاً عن ميزانية لبنان الكبير وعندما اصل الى الانتقادات على بعض النفقات ، التي لو جمعت كلها لما بلغت المليونين يتيه فكري في عالم الحقائق فارى (هذين المليونين) قطعاً ذهبية تؤلف كومة صغيرة ، وارى بجانبها جبلاً عظيماً هو ذلك المليار !

ذلك المليار يجب ان نضع حداً لانفاقه . يجب ان تجتمع كلمة السوريين واللبنانيين الموجودين في اقطار الارض حول امر واحد وهو ان يطلبوا من الذين بيدهم زمام العالم ان يشفقوا على هذا القطيع الصغير فيكفوا عنه هذه

المناورات الحربية ليتخلص من نفقات الحملة الحاضرة ومن ويلات كل حملة

هذا ما يجب عمله اولا

وبعد ، يجب على الامة ان تُعلم شيئاً غير الكلام الفارغ فتهتم بامر حيوي هو ايجاد نسبة بين الصادرات والواردات . يجب على الامة ان تنتج فلا ترسل مليوناً الى اوربا الا بعد ان تصدر من الحاصلات ما توازي قيمته المليون

الاهتمام بالانتاج ايها الوطنيون اهم من الاهتمام بحذف النفقات من ميزانية العدلية — مثلا —

الانتاج قبل السياسة الخارجية وتتبع المناوشات في لندن وباريس ووشنطن

الانتاج قبل قراءة اسعار القطع لان البلاد التي تستخرج حاجتها من اكل وشرب ولبس لا يمكنها ان تتأثر من سقوط الفرنك وارتفاع الدولار لان الانتاج فوق كليهما

الانتاج مصدر العزّ ، فبدلا من ان نقضي حياتنا بالتذلل امام الاسواق الاوروبية نصبح سادة في اسواق بلادنا

. . .

قرأت امس خبراً في جريدة ما آله ان اهالي مقاطعة كولومبيا بدأوا يضطهدون السوريين وحجتهم ان السوري يزاحم الوطني عَلَى خيرات البلاد . وهذه الحركة ضد السوريين ليست بالجديدة فقد سبقها اخوات لها في اماكن كثيرة

ان الاميركي لايضطهد المهاجر الايطالي ولا المهاجر الالماني فلماذا يضطهد السوري واللبناني ؟ ليس في هذا سرّ عميق والمسألة بسيطة :

يذهب الايطالي الى اميركا فلا ينقطع الى التجارة —شأن السوري— بل يشتغل في الارض فيستخرج كنوزها وهو بهذا يساعد اهل البلاد التي يستظل بظل علمها على زيادة ثروة البلاد اي تكثير الصادرات خلافاً للسوري الذي يتاجر بالاصناف الاوروبية فيأخذ من امرأة الفلاح الكولومبي في اسبوع واحد ما حصله زوجها في عدة اشهر

وانما اوردت هذا المثال البسيط لاظهر اننا شعب خسرنا مزيّة اولية اساسية لكل امة تريد النجاح · وهذه المزية هي الانتاج والعمل ضمن بلادنا

من الغريب ان اتناول هذه الابحاث وانا امرأة ولكنّ عذري حبُّ بلادي فهو يدفعني الى ولوج هذا الباب الذي ما سبق لنساء البلاد ان دخلنهُ ...

وهنا يقف قلمي لأتأمل بالالوف المؤلفة من ابناء وطني الضاربين في كل بقعة من بقاع الارض ركضاً وراء الرغيف · والرغيف هنا في قلب هذه البلاد

الثروة هنا وليس من يمدُّ يديه ليتناولها

يعترض المهاجر بان البلاد فقيرة لا تقوم بسكانها !

وليس من فقر الا في قلوبنا وفي نفوسنا

النفوس الفقيرة تأبى الجهاد والنفوس الغنية تجاهد الى ان تحيا حياة حرّة او تموت !

والحرية يا اهل الوطن هي ان يحصل كل انسان على ما يكفيه دون ان يحمّل الناس اثقاله

مستقبل الآثار

في سوريا

١

تجاسرت ان اطرق المواضيع الاقتصادية والعلمية ، لان لي عقيدة ثابتة هي ان بلادنا المحبوبة لا تصير كما نريدها الا اذا جارى رقيّ المرأة رقيّ الرجل فيتمكن الاثنان من تربية الولد تربية كاملة حقة ولا اسمي «مجاراة» اتقان المرأة التكلم بلغات كثيرة ، فاللغات ليست سوى واسطة للتفاهم بين الامم ولو كان التكلم بلغات عديدة من الدلائل على العلم لكان خدام البواخر وخدام المطاعم وتراجمة السياح في طليعة العلماء

العلم بالشيء هو ان نعرف كيف تكوّن هذا الشيء ومن كوّنه وكيف يمكن ادخال التحسين اليه . فاذا ارينا ولداً من اولادنا اناء زجاجياً — مثلا — فليس من الاهمية ان يعرف اسمه بجميع لغات الارض . المهم هو ان يعرف الولد اين يصنع الزجاج وكيف يصنع وتاريخ صنعه ، ولماذا لا نصنع مثله في بلادنا ، واننا اذا فعلنا هذا نحمل اولادنا على تشغيل عقولهم بامور مفيدة فينصرفون الى الامور الجدية التي تعود على البلاد بالنفع . اما اذا بقينا نعلّمهم فنون (الرطانة) لا غير فلا نستغربنّ اذا اصبحنا بعد جيل عبيدَ عبيدِ المتمدنين

نحن نسابق بعضنا في تعلم روايات شكسبير وقصائد فكتور هيكو ، ويمكننا ان نعدّ بين شيبتنا المئات من الذين يتقنون الاداب الفرنسية والانكليزية

اتقاناً كاملاً . نسافر الى اوروبا ولا نترك زاوية لا تنتفع منا (بقبض رسم الدخول) فننتقل من لندن الى باريس الى برلين الى جنيف ونتآلف مع البنايات والمتاحف والمسارح والممثلين والممثلات اكثر من تآلفنا مع بيوتنا وعائلاتنا

اما بلادنا فنكاد لا نعرف عنها شيئاً ولا نكلف نفوسنا المعرفة واذا جازف احد كتاب الفرنج بوقته وماله وكتب لنا شيئاً عن بلادنا فاننا لا نتعب لتصفح ما كتب . جال غوستاف له بون الفيلسوف الفرنسي المعروف في كل مدن الشرق مفتشاً عن آثار المدنية العربية فلم يترك رسماً الا نشره ، وقد صوّر هذه الرسوم بقلمه فجاء كتابه معجزة من المعجزات وزار هذا الفيلسوف احدُ كتاب سوريا فنقل عنه هذه العبارة المرّة : (لقد قضيت قسماً من عمري في كتابة مدنية العرب ومن الغريب انني لم ارَ عربياً واحداً كتب اليَّ سطراً او شكرني بكلمة)

تحتفظ الحكومات الاوروبية بالعاديات فتبني لها المتاحف والقصور وتعرضها لانظار المتفرجين ومن وراء هذا العرض موارد لا يستخفّ بها . ونحن نملك في بلادنا كنوزاً من الاثار القديمة لو كلفنا نفوسنا قليلاً من العناء لاقمنا في كل مدينة من مدن سوريا متحفاً يفوق اكبر المتاحف الاوروبية . فهنا في قلب هذه البلاد دفنت المدنيات القديمة من الفينيقية الى الاشورية الى اليونانية الى الرومانية الى العربية ، وكل هذه المدنيات تركت بعدها اثاراً هي دليل التاريخ والمؤرخين ، فاذا ادرنا عيوننا الى هذه الاثار كان لنا فوق الربح المادي الربح الادبي ، وهو مساعدة المؤرخين على درس المدنيات القديمة بدرس آثار الامم التي تعاقبت على سوريا

لمحة في العلوم الاثرية

يطلق معنى لفظة العلوم الاثرية او (الاركيولوجيا) على كل ما هو قديم، كاللغات، والاديان، والفنون، والمعاهد، حتى عادات البشر

على انها اليوم قد حُصرت في معنى واحد وهو درس المباني القديمة وكل ما ابقته المدنيات من اواني خزفية او حجرية او خشبية او نحاسية . والغاية التي يرمي اليها المشتغلون بالعلوم الاثرية هي « الوقوف على تاريخ الامم بدرس الاثار الصامتة التي تركوها »

وظهر مؤخراً فضل العلوم الاثرية على التاريخ بظهور آثار مدنيات قديمة لم يكن العالم يحلم بوجودها . اما على الفن فقد ظهر فضلها بنوع خصوصي بما وضعت تحت نظر المشتغلين به من التماثيل التي تعد نتيجة تطوّر الفنون مدة اجيال عديدة

وعلم الاركيولوجيا علم حديث لم يشتغل به اليونانيون ولا الرومانيون

يقول المؤرخون ان (دانتي) عندما كان يفتش على كتب قديمة خطية عثر صدفة على بعض المخطوطات الحجرية . وان المشتغلين بالتصوير لم يعثروا على الصور القديمة الا عندما بدأوا يضعون النظريات الاولى لهذا الفن . ثم ان ميشل انجلو ورافائيل اخذا يدرسان النصب القديمة وخرائب اثينا ورومية وهكذا كانت الخطوة الاولى نحو العلوم الاثرية خطوة ايطالية خطاها كبار الاساتذة من النحاتين والمصورين والشعراء

وكانت الخطوة الثانية للويس الرابع عشر . على ان الناس لم يتعدّوا في

هاتين الخطوتين جمع الصور والمنحوتات ولم تدخل الاركيولوجيا الطور الجدّي الا بعد ظهور العالم ونكلمان

ولد هذا العلامة الالماني في مدينة ستندال سنة ١٧١٧ وكان ابوه صانع احذية فلم يتمكن لشدة فقره من تعليم ولده فاشفق عليه رئيس احدى المدارس واخذه تحت حمايته وساعده على اكمال دروسه · وبعد خروجه من المدرسة انصبّ على العلوم الاثرية والف كتاباً في موضوعها · ثم ذهب الى رومية فعينه البابابنديكتوس الرابع عشر مديراً لمكتبة الفاتيكان · وزار بعد العاصمة كل مدن ايطاليا والف المؤلفات الكثيرة التي حتمت باندماج الفن بالعلوم الاثرية اندماجاً نهائياً

وزاد في اوروبا عدد المهتمين بالآثار وعدد المجموعات الاثرية واخذت ادارات المتاحف ترسل الزوار والبعثات الى الشرق مركز المدنيات القديمة

فاكتشف شامبوليون العالم الفرنسي معاني الاحرف المصرية وانعم على التاريخ والمؤرخين بان اهدى اليهم صفقة واحدة كل تاريخ مدنيات مصر السالفات

ولا يزال علم الاركيولوجيا في تقدم مستمر وقد قسمه المشتغلون به الى اقسام عديدة فهناك الاركيولوجيا المصرية (الهيروغليف) والفينيقية ، والاشورية ، والفارسية ، واليونانية ، والرومانية ،والنصرانية ، واركيولوجيا العصور المتوسطة

٢

تحت هذا العنوان نشر الدكتور كونتنو Contenau في مجلة مركور ده فرانس Marcure de France مقالاً عن الآثار في سوريا واهميتها المستقبلة . والدكتور المذكور هو رئيس البعثة الاركيولوجية في سوريا قال :

امام غنى سوريا المادي يوجد غنى ادبي عُرِفنا بالنزوع اليه والتفتيش عنهُ وهذا النزوع هو سبب نشر علومنا في الشرق لهذا يجب ان نصرف اهتمامنا الى مستقبل سوريا العلمي . وفي هذا المقال ، الذي اكتبهُ بعد سفرة طويلة فتشت في اثنائها عن الآثار القديمة ، اجرّب ان الفت نظر السوريين الى اهمية الميراث الذي وضعتهُ الاجيال بين ايديهم ، فيتمتعون بكنوزه ويمتعون بها المدنية

ان مركز سوريا بين الامبراطوريات الثلاث الكبيرة الاشورية والمصرية والفارسية ، هو سبب جعلها مدة اجيال ساحة حرب تتلاطم فيها مطامع جيرانها . فقبلُ المسيح بالفي سنة امتدّت عليها سطوة بابل ، وبعد خمسة اجيال حملت نير المصريين الذين جعلوها درعاً يتقّون به هجمات الشعوب النازلة عليهم من الشمال

وبعد ذلك بالف سنة تبع حظها حظ امبراطورية ما بين النهرين التي داست كما شاءت عروش ملوك سوريا الصغار . ثم ان الفرس استولوا عليها بعد استيلائهم على بابل ، وجاءت بعدهم المدنية اليونانية فازهرت واثمرت واستولى الرومانيون بعد اليونانيين على سوريا ولم يلقوا مقاومة الا من بعض

امراء الصحراء سكان ضواحي تدمر الذين ما برحوا ان اقتبسوا المدنية الرومانية

وجاء الفتح العربي فغطّى مدة اجيال كل ما كان قبله وتبعه الصليبيون فبنوا قلاعهم وقصورهم وكنائسهم في كل سوريا، وادخلوا مدنيتهم التي أثّرت بالشعب السوري وباخلاقه الى درجة لم يتمكن الفتح التركي مدة اجيال من ازالتها ولا من التغلب عليها

هل يوجد تحت السماء بلاد لها ماضي كماضي البلاد السورية، تعاقبت عليها تواريخ الانسانية جمعاء؟ لا يوجد بقعة من بقاع الارض شهدت ما شهدته هذه البلاد فكانها بكاملها منجم لا يفرغ يحوي الشهادات الحيّة عن الماضي الصامت

كل ما اقوله صحيح ولكن في درس آثار سوريا صعوبة لا يعرفها الا من عاناها . ان البلاد غنية بالاثار ولكن جميع هذه الآثار مبتورة ناقصة . فهناك ركام من الكنوز المقطّعة الاوصال لا تنطق الا امام من يعرف ان يحلّ رموزها اي امام العلم . والسبب في وجودها على هذه الحالة هو ان الفتوحات التي حدثت في سوريا كانت سلسلة معارك دموية قضى فيها الغالب على كل ما للمغلوب من صامت وناطق . وبقدر تعدد اديان الفاتحين كثر التخريب والتجديد . .

وهناك سبب اخر لتحطيم الاثار هو كره الاهالي لكل ما هو صورة او تمثال فاذا هم عثروا على ناووس قديم فتحوه بقصد اخذ ما فيه ثم اجهزوا عليه بضربة فأس فحطموه وهم لا يتأخرون عن تحطيم اجمل الاثار الفنية رغبة برؤية ما في داخلها . وقد شهدت بعيني الحادثة الاتية وهي برهان على عدم تقدير الاهالي قيمة الفن

بعد دخول الحلفاء سوريا طلبت بلدية صيدا من الحكومة ان تأذن لها باستعمال احجار متهدمة من القلعة المعروفة بقلعة القديس لويس لبناء بعض المدافن . وقد جاء بعضهم ليلاً وشرع بهدم القسم الباقي من القلعة رغبة في الحصول علَى احجار كثيرة !

وكثيرون من سكان صور وصيدا ينقبون دوماً على العاديات لانهم تيقنوا وجود من يشتريها فهم ينقبون ويحملون ما يقوون علَى حمله اما التماثيل والاحجار الثقيلة الوزن فيحطمونها بسرور

ذهبت سنة ١٩١٤ الى خليج النبي يونس وازلت الاتربة عن لوحة حجرية كبيرة تحوي فُسيفُساء «موزاييك» من النوع البيزنطي . وبعد ان اخذت قياسها وصورتها بالفوتوغراف غطيتها بالاتربة ثم رجعت لاراها ثانية فظهر لي ان كل شيء باق كما كان ولما ازلت الاتربة رأيت النقوش مشوهة كأنها ضُربت بفأس ضربات عديدة (١)

فعليه لابدّ من تنوير اذهان الذين يجهلون قيمة الاثار ومعناها ، وهذا العمل يلقى على عاتق معلمي المدارس والكهنة والائمة . يجب ان يفهم الشعب معنى ماضيه الباهر ويتأكد ان هذه الآثار الدالة على مدنيته القديمة هي من عوامل فخره كشعب يتوق الى الحرية ، وان عليه ان يحافظ على امجاد تاريخه كما يحافظ على حياته . ويجب ان يقتنع مشوّهو العاديات ان المشتغلين بالاثار يفتشون عن الاحجار لقراءة ما عليها من الكتابة لا لما في جوفها من الذهب والفضة

اذكر باسف حادثة وقعت قديماً للمسيو كارمون غانو Clermont Ganneou

---

(١) شاهد جامع النسمات هذه اللوحة سنة ١٩١٠ وكان طولها زهاء عشرين متراً

فقد اكتشف هذا العالم نصب – مشا – ملك موآب (وتاريخه يرجع الى تسعة قرون قبل المسيح) وقصد حمله الى متحف اللوفر حيث هو باقٍ الى الان فلما رأى الاهالي الاهمية التي لذلك التمثال ظنوا ان في جوفه كنزاً فاجتمعوا ليلاً واوقدوا حوله النار حتى حمي ثم صبوا عليه الماء البارد بقصد تكسيره وحطموا بفؤوسهم ما لم تقوَ عليه النيران وهكذا شوّهوا تمثالاً من اثمن التماثيل المعروفة الى الآن

ومع قلة احترام الاهالي للعاديات وكثرة الايدي اللاعبة لا تزال سوريا ملأى بالاثار القديمة واهمها لا يزال مدفوناً ، وكلما اراد الباحث اكتشاف الآثار الاكثر قدماً تحتم عليه ان ينزل بعيداً في جوف الارض. قصدت مدة بحثي في صيدا ان اصل الى آثار تمثل ما قبل التاريخ المسيحي بالفي سنة فبعد ان حفرت ثمانية عشر متراً تمكنت من الوصول الى اوائل الآثار الرومانية اليونانية . فكم يلزم من العمل الشاق للوصول الى الآثار البابلية والفارسية والحثية ؟

وقد كانت العاديات السورية فيما مضى مشاعاً يحملها الاثريون الاوروبيون الى متاحف بلادهم. ثم سنّت تركيا قانوناً يمنع اخراج العاديات الى اوروبا ويقضي بنقلها الى اسطانبول . اما اليوم فقد تقرر مبدئياً ان تبقى عاديات سوريا في سوريا

والجنرال غورو ولع بالفنون القديمة والحديثة ، لهذا عني منذ وصوله الى سوريا بانشاء ادارة للآثار تاخذ مصاريفها من صندوق المفوضية ومخصصات اخرى سنوية من الحكومة الفرنسية

والعمل الملقى على عاتق هذه الادارة كبير شاقّ · فيجب الاحتفاظ بالآثار الموجودة حالياً ومباشرة الحفريات الجديدة للوصول الى آثار المدنيات القديمة ويجب الاهتمام بالمباني ، كخرائب تدمر وبعلبك، وجعلها في حالة تجلب اليها السياح وهم لا يتوافدون بكثرة الى سوريا قبل تعميم طرق المركبات وتأسيس شركات تقوم بنقل السياح وبانشاء نزل يجدون فيها الراحة التامة

ثم يجب الاهتمام بايجاد متحف للآثار · هل يقام في كل بلد متحف او تجمع العاديات في متحف واحد مركزه بيروت ؟ ولقد قرّ الرأي على انشاء متحف بيروت اولاً حتى اذا تكاثرة العاديات تنشأ متاحف اخر في بقية مدن سوريا

وهنالك متحف سيؤسس في دمشق خصيصاً للفن العربي · وقد اقرّت الحكومة مركزه في احد البيوت العربية القديمة ، فيجمع فيه كل ما كاد ان يضيع من النحاسيات والسجاد والكشمير والمخطوطات والخزفيات · وليس اجمل من وضع هذه الكنوز في قصر تمثل جدرانه وسقوفه كل الفنّ العربي والمدنية العربية

والآثار الظاهرة اليوم كثيرة · منها الفينيقية ومركزها تجاه جزيرة ارواد ومنها آثار مغازل · وهيا كل اشمون في صيدا · اما المباني اليونانية فاكثرها يقع في تدمر وهي تناظر اثار بعلبك الوحيدة في اهميتها

اما مباني العهد البيزنطي فعديدة · بني اكثرها في القرنين الخامس والسادس منها قلعة سمعان بين حلب وانطاكية والمباني الواقعة في ضواحي حماه

واثار الصليبين اكثر من ان تحصى · منها قلعة الحصن وقلعة الشقيف وقلعة صيداء · ومما يؤسف له ان اكثر هذه المباني تحوّلت الى حظائر للانعام ومرابط للخيل ، ومستودعات للسماد ! !

٣

تصدر اليوم في باريس مجلة علمية تدعى سوريا (Syria) يقوم بتحريرها نخبة من كبار الاثريين. وهي تنشر كل ما له علاقة بالشرق الادنى من الوجهة الاثرية وما تقوم به البعثة الفرنسية في هذا السبيل

وبين الذين يراسلون هذه المجلة عالمٌ هو المسيو اوستاش ده لوري رئيس البعثة الاثرية في دمشق. وهو عالمٌ اوفده ُ متحف اللوفر الفرنسي ليعمل مع البعثة الفرنسية وذلك لما له من الالمام بالفن الشرقي وخصوصاً العربي منه. وقد عرفه اخواننا الدمشقيون بمشروع ينوي القيام به وهو تأسيس مدرسة لاحياء الصنائع الشرقية القديمة وقد اشترى لهذا الغرض دار آل العظم الشهيرة

وقد طلبت الى هذا العالم ان يتحف عالمنا النسائي من وقت الى آخر بشيء عن الاثار ومستقبلها فقال لي انه يخدم بسرور النهضة العلمية في هذه البلاد لانه لم يأتِ بيروت إلا لهذه الغاية، وبهذه المناسبة اعطاني رسمين يمثلان نقوشاً من نعشين عثر عليهما في دمشق وهما نعشا سكينة وفاطمة الشهيرتين. والمقال الاتي الذي بعث بهِ الى المؤتمر الفني في باريس ونشرت شيئاً منه مجلة (سوريا)

« في مدفن الباب الصغير في دمشق قرب الجامع الذي نُقش عليه شعار السلطان مملوك الملك الظاهر بيبرس يوجد قبر له قبتان، وهما — حسب التقاليد التي يتناقلها الدمشقيون عن الاساطير القديمة — يضمان ام كلثوم ونسيبتها سكينة ابنة الحسين. وبقرب هذين القبرين يوجد قبر ذو قبة واحدة

يقال انه قبر فاطمة الصغيرة اخت سكينة

وقد خربت هذين القبرين زلزلة فاعيد بناؤهما مؤخراً في نفس مكانهما القديم وقد كلف بالبناء مهندس من اصل فارسي هو السيد الفاضل سليم المرتضى وهو يحتفظ بهذين القبرين كأقدس ذخيرة يملكها ابناء مذهبه

والسيد سليم هو الذي عثر اثناء عمله في اعادة بناء القبرين، على نعشي سكينة وفاطمة اللذين اتكلم عنهما

هذان النعشان موضوعان في مغارة تحت الارض لا يدخلها الا المقرّبون ويقول السيد سليم ان جسدي السيدتين الكبيرتين موجودان في سرداب تحت الاقبية

ونعش سكينة مصنوع من خشب الجوز طوله متران و٦٥ سنتيمتراً بعرض متر و٥٠ وعلو ٧٤ سنتيمتراً . الواجهة مقسومة الى ثلاثة اقسام على القسم الاعلى كتابة بالحرف الصغير تمثل الكلمات الاولى من سورة العرش ويجيء بعدها اسم الناقش هكذا :

(هذا عمل محمد بن احمد بن عبدالله رحمهُ الله)

ويُرى بعد هذه الكتابة خط دقيق بارز يفصل بين القسم الاعلى والقسم الاوسط حيث حفرت الكتابة بالحرف الكوفي المتقن ويلي هذه الكتابة الى الاسفل نقوش على شكل الاغصان اضمحلت وتكاد ان لا تظهر

وقد نقشت بين الحروف اغصان واوراق متشعبة ولكنها متناسبة وهي داخلة في الخشب غير بارزة، واضحة على كثرتها، تذكر بالفن المندي، ونحيفة ازاء الخط الكوفي الجميل الذي يرمز الى شرف اصل ابنة سبط النبي

وقد نقشت البسملة على اللوح الجنوبي المواجه للباب· وهو اللوح الوحيد الذي يمكن اخذ رسمهِ بسبب ضيق المغارة· وعلى اللوح المقابل للجهة الغربية تُقرأ هذه الجملة :

« هذا قبر سكينة بنت الحسين »

لقد ساد الاعتقاد ان القبر هو قبر سكينة ، على ان البراهين على صحة هذا متناقضة · فابن جبير يقول ان القبر واقع الى غربي المدينة ولكنه لا يثبت انه قبر سكينة نفسها · وذكر ياقوت (القبر الواقع الى جنوبي الباب الصغير) وزاد على هذا ان سكينة دفنت في المدينة

فعليه ، لا يتفق التقليد الشائع مع كلام ياقوت فضلاً عن ان بعض المؤلفين(كالأب لامنس وابن خلكان) يقولون ان سكينة ابنة الحسين ماتت في المدينة وان هذا المدفن هو ضريح أُقيم لاكرامها

ونعش فاطمة مصنوع من الحجر ومنقوش بيد صانع ماهر ولكن مما يؤسف له ان بعضهم اراد ان يحسّن في هيئته فدهنهُ بدهان اسود اضاع كثيراً من جماله · والكتابة التي عليه بالخط الكوفي ومآلها :

« هذا قبر فاطمة ابنة احمد بن الحسين بن السبطي توفيت رضي الله عنها في رجب سنة تسع وثلاثين واربع مئة »

لم نرَ في الاخبار اثراً لفاطمة هذه ولا للنسب المتحدرة منه وعلى كل لا يمكن التسليم بانها اخت سكينة ابنة الحسين لان النصّ المنقوش واضح جلي على ان امثال هذا الخطأ يقع كثيراً وخصوصاً في الشرق

حكاية الآثار

١

نشرت مجلة المقتطف الغراء فصلاً عن آثار فلسطين وسوريا فتكلمت عن النقب في فلسطين والطرق العلمية الدولية التي يتبعها الناقبون ولما جاء دور الكلام عن النقب في سوريا قالت :

لما قرأنا ما اقتطفنا منه السطور السابقة « اي السطور التي تضع تحت نظر الناس ما يجري في فلسطين» اتجهت افكارنا الى سوريا ولبنان ، الى صور وصيدا و بيروت وجبيل و بعلبك ودمشق، الى اشهر مدن التاريخ وما أُخذ منها من العاديات وما يحتمل ان يوجد فيها الآن اذا نقِب عنه على اسلوب علمي ، ولكن اين يوضع ؟

كتبت الينا سيدة سورية من باريس في اوائل الصيف الماضي تقول : « سمعت اليوم عن الاثار التي وجدت في جبيل حديثاً ونقلت الى باريس فاغرورقت عيناي بالدموع حالما رأيت ان آثار بلادنا وعنوان مجدها السابق لا تكاد تكشف فيها حتى تغرّب عنها »

بعد هذه (الغمزات) اللطيفة يقول المقتطف ان عنده وصفاً مسهباً لمكان آثار لم ترَ العين مثلها في جمالها و كثرتها اهتدى اليه الاثري المشهور المرحوم ادمون دوريغلو ثم سدّه وتركه كما كان وانه يضن بنشر هذا الوصف لئلا تخرج هذه الاثار وتنقل الى اوربا وانه قد يسلم ولاة الامر هذا الوصف

المكتوب بخط ادمون دوريغلوا اذا هم (اي ولاة الامر) قاموا بشروط يقصد منها في الدرجة الاولى حفظ حق الوطنيين

اما وقد اصبحت مسألة الاثار موضوع ريبة لمجلة رصينة محققة مثل المقتطف . اما وقد كثر الكلام حول مسألة الاثار فلا بأس اذا تناولناها نحن النساء بدورنا وقلنا كلمتنا فيها ، وغايتنا :

اولاً : رفع الستار عن امور كثيرة مبهمة لان هذا الابهام قد يجرُ الى ريبة عامة غير محمودة

٢ : افهام الشعب اولاً معنى الآثار وقيمتها المادية والمعنوية والربح الذي تناله البلاد من وراء المتاحف . وثانياً حمله على المطالبة بحقوقه في الاشراف على الحفريات بواسطة مندوبين يسميهم مجلس النواب

٣ : المطالبة بمتحف ينشأُ فى اقرب وقت وفي مدينة بيروت

٤ : الاحتجاج على تأخير إنشاء هذا المتحف وعلى الاعذار التى ترمى الينا مثل عدم وجود بناية وعدم اهتمام الشعب بمسألة الاثار وما اشبه

٥ : الاحتجاج الى المجلس على لفّه هذه القضية يوم تصدّى لها احد النواب وعدم تعيينه لجنة تبحث فيها كسائر الامور التي طرحت ووُكلت الى لجان

ولي كلام في هذه النقاط الخمس ارجئه الى فصل ثانٍ متمنية ان تُزال هذه الحجب السوداء التي يكفنون بها الاثار

. . . . .

٣

ان الرأي العام في كل بلاد الله يمشي مع تيار كبير هو تيار الاقتناع. فالناس يسمعون فيقتنعون فيمشون . وللاقتناع شروط : اولها التكرار فمن يسمع باشاعة مرّة قد يرتاب في تصديقها ولكن اذا سمعها مرات متواليات تدخل الى رأسه وترتكز هناك مع كل الامور المقرّرة ولا تخرج الا كما دخلت اي بادلّة عديدة متكررة

الشعب يقول — اين الآثار ؟

وهذه الريبة تتردد ثم تتمدّد حتى تصل الى مسامع الوطنيين المقيمين في المهاجر ثم تعمّ فلا يحجم عالم كبير مثل الدكتور صروف ان يسأل من على صفحات مجلة هي امّ المجلات العربية :

— اين توضع الآثار ؟

ثم هو يذكر — فيما يذكر — انها ارسلت الى باريز . وكأني به يقول: « لماذا أرسلت ؟ »

فالعالم والعامي اذاً يستويان في طلب الادلة فعلى من بيدهم الامر ان يقدموها لازالة الريبة . ونحن نرجوهم ان ينشروا بياناً يذكرون فيه كل ما وجدوه وبياناً ثانياً يقولون فيه لماذا ارسلت الاثار الى باريس . قيل انها ارسلت ثم ارجعت ! وحبذا لو يوضحون لنا الداعي الى هذه المناورة فالشعب كما قلنا يريد الدليل

يقول الاثريون الفرنسيون ان الحكومة التركية لم تمضِ بعد معاهدة الصلح وان مسألة الحفريات لا تزل خاضعة للقوانين التركية . ويقولون

ان الحكومة اللبنانية لا تعطي غرشاً واحداً لاجل الحفريات وان المفوضية قد دفعت الى الان كل النفقات فبلغت عشرات الالوف من الليرات · ويقولون ان كل الحاحهم لدى الحكومة الوطنية في طلب بناية تجعل متحفاً قد ذهب عبثاً

اما مسألة الصلح مع تركيا فلا نهتدي الى وجهة المنطق فيها

الصلح لم يعقد ؟ ان عدم عقده لم يؤخرنا عن التطوّر المتتابع في شكل الحكومة التي تكاد ان تكون كلها في يد الوطنيين · نحن لا ننكر وجود القيود ··· ولكننا قد خطونا خطوة كبرى الى الامام رغم كل الكبوات وكل الهفوات فلماذا تسري الانظمة الجديدة على كل شيء وتبقى ادارة الحفريات — وحدها — خاضعة للقانون التركي ؟

اما مسألة النفقات التي صرفت من خزينة المفوضية الى اليوم فهذه نضيفها الى حسنات الحكومة الافرنسية في هذه البلاد التي منذ القديم تصرف بدون حساب على نشر المعارف ونغتنم هذه السانحة لنقرّ مرة اخرى بهذا الجميل ونقول ان شعبنا لا ينسى المعروف

ولكننا نسأل اذا كانت مسألة هذه النفقات تقف سدًّا بيننا وبين حقنا في الاشتراك بمشارفة الحفريات وفي حصولنا على متحف يؤتمن عليه رجل وطني

ونرجو الجواب

تبقى مسألة البناية وتقصير الحكومة في تقديمها وواجبات الشعب وواجبات المجلس تجاه هذه المسألة الحيوية القيّمة

٣

في بيروت عشرات من الجمعيات ، لمشروع السل، ولدفن الموتى ولتوزيع الطحين ، ولتهذيب الناشئة ، ولتجهيز البنات الفقيرات ، ولايواء المهاجرين . وقد بقي مشروع واحد اهملناه وهو ايجاد متحف نحفظ فيه الاثار ونشوّق به السياح الى زيارة لبنان »

"من حديث للسيدة لبيبه ثابت"

يظهر من الحديث المنشور اعلاه ان اهل البلاد يفهمون معنى الاثار فاذا كانت الفكرة لم تنضج بعد تماماً فيكفينا ان نرى السيدات امثال السيدة ثابت يعملنَ على نشرها ويجذنَ تاليف جمعية تهتم بهذا الامر الحيوي

ندعو الشبيبة ان تحقق فكرة السيدة ثابت التي نرجو منها — وهي امٌ البيت الوطني الغيور — ان تُتابع السعي لهذه الغاية ونعمد الى تاليف حلقة لنشر الفكرة في المدينة ومطالبة المجلس والحكومة بالامر

الاثار هي عنوان مجد البلاد لانها تظهر اننا اصحاب مدنية مضى عليها الوف السنين ، والمتاحف التي تضمُّ هذه الاثار هي لوحة يتعلم فيها الولد بزيارة او بزيارتين مجمل تاريخ بلاده . المتاحف هي واسطة كبرى لتحسين ذوق الناس اذ نعرض فيها مصنوعات ابناء الفن من متقدمين او متأخرين وهي عامل كبير على ايجاد موسم سياح يزورون البلاد خصيصاً للتفرج على آثارها

. . . . .

لقد طوى المجلس مسألة الاثار ، ونجتهد ان نجد له عذراً من ضيق الوقت ... ومن ضيق اليد ... و ... ولسنا نعمد الى حمل المجلس على استفتاء الحكومة لماذا ارسلت الاثار الى باريس وماهي الغاية من ارسالها وارجاعها

لانطالب بامر كهذا ولا نكلّف المجلس فتح الدفاتر العتيقة ...

المفوضية صرفت على الاثار مبالغ جسيمة . صرفت وتصرّفت وانقضى الامر فمن الان وصاعداً نريد ان نصرف من مالنا على الحفريات كي لا يقال لنا ما شانكم والاثار

على المجلس ان يوجد المال وان لا « يتلبّك » يكفي ان « يريد» والنجاح مكفول . على المجلس ان يوجد مالاً للحفريات من اي مورد شاءه

اما مخصصات المتحف فنحن ننادي البلدية ونرجومنها ان تسمعنا كي نسجّل لها احدوثة طيبة ونقول ان اول متحف انشيء في بيروت انشأته البلدية

المتحف يقوم بنفقاته — تقريباً — لان الداخل يدفع رسماً فلا يبقى على الصندوق الكريم الا دفع النفقات الاولية وسد العجز السنوي الذي ربما لا يحدث

النتيجة العملية :

نرجو المجلس ان يوجد مخصصات للحفريات تدفع منها معاشات الاثريين الافرنسيين ونفقات الحفر

ونرجو البلدية ان توجد لنا متحفاً

ونرجو الشبيبة ان تؤلف حلقتها فتنشر الفكرة بين الناس وتفهم من يهمهم الامر ان الشعب — وان كان غير متفهم كما يقولون — فهو يريد ان يفهم

ميّ وكتابها

ميّ هي اكتب كاتبة عربية على الاطلاق ، اقول هذا وانا واثقة من مصادقة اخواتي الكاتبات ، فكل منهنَّ شعرت واقرَّت بتفوُّق ميّ بعد الاطلاع على كتاب (باحثة البادية)

هذا القول لا يحط من شأن كاتبات سوريا ، هاته الشقيقات المخلصات العائشات في محيط قاتم ، الراسفات في ثقيل السلاسل ، المفككات ، بقوة نفوسهنَّ العلوية ، قيوداً احكمت شدَّها الايام ، هؤلاء الحبيبات لهنَّ فضل كبير ، ومنزلةٌ عزيزة

في العالم العربي اليوم كاتبات يرسلنَ افكارهن بلغةٍ فصحى جميلة ، ولكن هذا العالم فقير بالنساء المتمكنات من العلوم ، المبتدعات الاساليب الحديثة . فما تكتبهُ نساؤنا يجيء خلاباً اذا نحن نظرنا الى الصورة البارزة . ولكنهُ يجيء فقيراً اذا نحن تقصينا الجوهر

عالمنا العربي فقير بالنساء المطَّلعات على الجديد الواقفات على حالة العالم فنياً وسياسياً وادبياً وعلمياً ، المتضلعات بالعلوم الوضعية ، المتآلفات مع المدنية الحديثة بكل ما فيها من البارز المصقول والجوهر العميق . لهذا يشعر من يقرأ شيئاً لكاتباتنا انه يرى افكاراً شديدة الشبه بافكار الاطفال ، بكل ما في الاطفال من العذوبة ، والطهارة ، والمعرفة الغريزية التي لم تصل اليها يد صاقلة وليس من ذنب على كاتباتنا اذا كنَّ لم يزلنَ اطفالاً فنحن في اول درجة

من الانقلاب الفكري ، والطبيعة آية الله في حسن النظام فهي لا تعطي النفوس الاّ ما وسعت

. . . .

اما هذا الفراغ في العالم النسائي فقد ملأته ميّ ، ولعلي لم اقم بالواجب نحو نبوغها عندما قلت انها اكتبُ كاتبة وها انا ارضي ضميري واقول انها تحسب — بحقٍ — بين كتّاب الطبقة الاولى وهي في نظري اكثرهم استحقاقاً للافضلية للاسباب الاتية :

اولاً — نسبةً الى سنها ، اذ لم تقع عيني الى اليوم على كتاب عربي يمكن ان يقاس بكتاب (باحثة البادية) كتبهُ رجل في سن (ميّ)

ثانياً — نسبة الى وضعية النساء الشرقيات وحالة ادمغتهن ومن يكلف نفسهُ للبحث قليلاً يلمس بيدهِ هذه الحقيقة وهي ان دماغ الرجل الشرقي سبق في التطوُّر دماغ المرأة فتكيَّف في عالم الاسفار وعالم المدارس وعالم المطالعة وعالم التجارة . والدماغ المتحضر اكثر قابلية للنبوغ والابداع من الذي لم يزل على الفطرة وهذا حدث اوليّ اثبته العلم والاختبار

وكثير على ميّ — وهي بنت الشرق — ان تعادل كبار الرجال علماً واطلاعاً ونبوغاً

أراني رجعتُ الى التحفظ كانني احذر ان تقوم القيامة عليّ . . . . ميّ اكتب الكتّاب — عندي — لانها جعلتني اقرأ كتاباً كاملاً بدون تثاؤب . وكفى . .

. . .

وهي تنتفض بحمّى الحياة ذات ارادة جذابة ، عميقة ، غيورة ، والقوة المفكِرة فيها قوية ، شديدة ، حضّانة، مستأثرة ، ولعل لمؤلفات « غوستاف له بون » يداً في صقل مواهبها على هذه الكيفية

اما كتابها فثلاثة مؤلفات في واحد : نظرياث (قاسم امين) في تحرير المرأة ، واجمل ما كتبتهُ (باحثة البادية) في اصلاح شؤونها ، وشروح ميّ على هذا التحرير وهذا الاصلاح

ولقد انصفت ميّ صديقتها الراحلة بان شرّحت افكارها وحللت نفسها واظهرتها للعالم كما هي — ملك كريم — معيدة باعجاب نشر اجمل ما كتبت وهذه آية من آيات البلاغة تصف بها باحثة البادية حالة المرأة الشرقية ، متعة الاجيال ورقيقة الدهور

قالت تصف نفسها مشبهة اياها بالماء :

(يصبونه فينصب ويريقونه فيختفي في الارض ويضعونه في كل آنية معوجّة وملوّنة فياخذ كل شكل ويصطبغ بكل ما يراد من الالوان . تجره الطبيعة زارية هازئة فتارة ترفعه الى السحاب وطوراً تقذف به الى الارض وآنة تعاكسه بصقيعها فيتحول برداً وآونة تحمي عليه براكينها فيخرج ملتهباً . ثم أليس هو رمز الطاعة والامتثال يضعون به سكراً فيحلو ويذيبون به الحنظل فيمرُّ وهم مع ذلك لا يقيمون له وزناً ولا يعترفون بجميل ... انه مثلي يا ميّ يذهب ضياعاً

. . . .

وليست مي المخلصة نحو الباحثة باقل جوداً نحو قاسم امين . فقد ذكرت احدّ سهامهِ ، تلك السهام التي رمى بها العالم الشرقي في قلبهِ . وكأنها خافت ان ينسى الشرق جهادَ محرّر المرأة فجاءت بما نشرت من اقواله نذيرة

ومذكرة، وكأنها حذرت ان تهتز مصر من جديد كما اهتزت يوم صدر كتاب تحرير المرأة فبادرت المصريين حين تكلمت عن الحجاب بهذه العبارة :

«فليس ما اورده هنا الا سوانح لا قيمة لها في الاصلاح المرجو ولا اهمية لما اقوله ازاء ما يرتئيه اساطين المسلمين»

بعد هذه المقدمة القصيرة اللطيفة تعود مي في كلامها عن قاسم امين فتقول :

« وبين زرافات النساء المارة امامه تستوقف خاطره امرأة بلاده امه واخته وزوجته وابنته اولئك اللائي اوجدتهن الطبيعة صديقات لحزنه وانسه وكأني به يناديهن فيلبين النداء بطيئات متسكعات تعبات ويدنين فيرى عليهن غشاء يمنع عنهن نور الشمس ونور الحياة : الحجاب ! ! »

لئن اتعست الطبيعة (مي) كما تدعي في رسالة الى مجلة الفجر — بان « جعلت لفافة السياسة في دماغها جافة عميقة لا تتأثر ولا تتحرك » فقد أسعدتها بلفافة كبرى اوجدتها في دماغها « اللفاف » لفافة خلابة لا ادعوها « حسن السياسة » بل السحر الحلال

مينرفا واخواتها

اذا كنتم — ايها القراء الكرام — تتوقعون درساً ميثولوجياً عن مينرفا وفينوس وامفيتريت ونميزيس وبروزربين وجينون الهات الحكمة والجمال والبحار والانتقام وجهنم ،نسيبات وبنات وازواج جوبيتر فانني سامرع وازيل رعبكم بقولي ان «مينرفا» هي هذه المجلة ، (واخواتها)هن — بحسب القدمية — العروس والفجر والخدر والمرأة الجديدة والحياة الجديدة · اطال الله باعمارهن واعمار صاحباتهن العزيزات الى قلبي

بين قومي اليوم شعور — اظن انه في غير محله — هو شعور تبرُّم ··· و ··· اشمئزاز من كثرة المجلات النسائية كما لو كانت هذه المجلات تُطرح على الناس طرحاً وكما لو كانت مخصرة في بلد واحد وبين مشتركين هم نفسهم للجميع

لنفرض ان هذه المجلات الستّ منحصرة في بيروت وحدها فهل هي كثيرة على بيروت؟ اقول لا واثبت كلامي بالدليل لان مينرفا واخواتها مجتمعات يطبعنَ اقل من ستة الاف نسخة — هذه الارقام هي بعدَ حساب اخذته على اوسعه — فهلاً يوجد في بيروت ستة الاف امرأة يمكن لكل منهن ان تقرأ مجلة واحدة ؟ وهل يكثر على المرأة المتعلمة التي تنفق كثيراً او قليلاً ان تنشّط النهضة النسائية باشتراكها في نشرة لا يزيد ثمنها عن نصف ثمن قبعة

وانني ارجح ان صاحبات المجلات هن اعقل من ان يعتمدن على بيروت وحدها واعتقد ان مجلاتنا ستنتشر في كل الاصقاع العربية وفي كل المهاجر

وان لها مريدين — هنالك — ومروّجين يعزّ نظيرهم · فلتطمئن القلوب ولبهدأ رجفانها ولتأمن طوفان المجلات النسائية ٠٠٠

ولتبادر نساء سوريا ولبنان الى تعزيز نهضتهن وأسها الصحافة لان المرأة في صحيفة لها خصوصية تبثّ من روح التجدّد النسائي ومن روح التقدم النسائي ما لا يمكن لمئة جريدة من جرائد اسيادنا الرجال ان تفعله · فضلاً عن ان المباراة ترهف القوى وتثير النزعات الطيّبة في النفوس فلا يمضي زمن الا ولصحافتنا النسائية قوة تنضم الى سائر قوى الامة عندما يجيء وقت العمل الجدّي ٠٠ العمل المثمر الهاديء المتين ٠٠٠

انني راسخة الايمان باثمار نهضتنا النسائية · لا اقول هذا تعصباً مني لبنات جنسي ، بل اقوله اذ ارى في كل يوم لبنات بلادي ذكاء وشجاعة واقداماً ، وجلداً على العمل ، وحسن ادارة وفضيلة ما بعدها فضيلة

ويميناً ، ان نساء هذه البلاد لو تيسر لهن ان يتعلمن ما يتعلمه الناس في ارقى بلاد الناس وجمع هذا العلم الى ثروتهن — تلك الخميرة الوراثيّة الطيبة — لكنّ مثالاً لنساء العالم اجمع

بعد هذه المقدمة اقول انني لا اعرف منذ الان كيف سيؤثر مقالي — بكامله — على صاحبات المجلات · على كلٍّ انني واثقة من انهن يعرفن شيئاً عن محبتي المجردة والبعيدة البعيدة عن التحامل المذموم · فضلاً عن ان غايتي من هذا المقال ليست لاظهار تفوق هذه المجلة على تلك ولا لاضع نفسي موضع الحكم · ان للحياة شرائعها القاهرة ونحن نطيعها مكرَهين او راغبين والزمن وحده يظهر الحسنات والسيئات وهو خير المحكمين فلننتظره

هو وحده يلفظ حكمه وهو الذي سيقول لنا ان المجلة التي تصل الى اعلى القمة هي التي حملت في طريقها ذخيرة كافية من علم وثبات وحكمة وادب .

كتب اديب دمشقي الى سيدة تقيم في بيروت ما يأتي :

انا بفارغ الصبر ننتظر (مينرفا) وعساها ان تكون احسن من رفيقاتها اللائي لا يمكن ان نمدح منهن شيئاً سوى شجاعتهن ..

الله من هذا المجتمع كيف (يغرف) الانتقادات من بحر جوده ويفرّقها على الناس .. وانني ، مع ضآلة رأيي ، اخالف الاديب الدمشقي . فمع الشجاعة التي لا يرى سواها في مجلاتنا ارى الكرم ... ارى كرماً يفوق كرمه في رشّ سهام الانتقاد . فانهن يعطين كل ما في قلوبهن من التشوّق لرفع البلاد الى مستوىً يرغب فيه الكل ، ويعطين كل ما نعلمَه وكل ما قدرن على جمعه وكل ما يعتقدن انه صالح وانه حسن

فاذا كان العطاء لا يشفي غلة الذين استقوا من موارد عليا فهذا لا يدعى تقصيراً لان النفوس لا تعطي الا ما اخذت

فعلى صحافياتنا ان يتابعن التوسع في معارفهن القيمة ولا يسمحن للاسياد الرجال ان يعيبوا عليهن — كما هم فاعلون — ضربهن على وتر واحد وبقاءهن في دائرة واحدة ضيقة . عليهن — كما يقول صهرنا جورج باز — ان «يتخصّصن»

هذه الكلمة شديدة على اذني فهل لاصحاب الاقلام « المتخصصين » لتهذيب اللغة ان ينحتوا لنا كلمة افضل من التخصص وما يتفرّع منه ؟

ان عالم الصحافة واسع وفيه امور كثيرة غير الخياليات والاجتماعيات وواجبات المرأة ونظريات الناس في الزواج وتدبير المنزل الخ ..

المجال فسيح جداً لصحافياتنا وما عليهن الا ان يتهافتن بجدٍ علَى العلم الغربي من باب لغة من اللغات الاجنبية· لان العلم كما يقول بحقّ الدكتور « طه حسين » قد اصبح غربياً خالصاً وليس لنا فيه نصيب قومي ويجب ان نندفع في الطريق العلمية اندفاعاً لا حدّ له الا مقدرتنا الخاصة

عند هذا · عندما تطّلع صحافياتنا بطريقة اعم واوسع على امور العالم من علمية وصحية وفنية وسياسية واقتصادية ، تزداد معارفهن وتتشعب مواضيعهن فيكتبن بثقة وجرأة وتمكّن — كما تكتب مي مثلاً — التي لم تصل الى مركزها الادبي في عيون الناس الا لكونها ثابرت السنين العديدة على نحت وصقل قواها العقلية · وتصبح مجلاتهن ذخائر قيّمة اذا اذخرت في المكاتب تدّخر كآثار جديدة لا كمجموع نظريات — كذا يقول ساداتنا الرجال — ربطها مختلف المباني ومعناها لا يزيد شيئاً عما قرأناه منذ عصر اسحق والحداد والعازار

وانني بعين الفكر ارى مستقبلنا النسائي وضاحاً لمّاعاً ولا يؤلمني الفراغ الموجود في الصحافة وفي كل مكان لانني اعتبره شريعة طبيعية

ان النهضة لم تصل الى زمن البلوغ وهي اليوم نواة ! نواة هي حياتنا ، سياسية كانت ام ادبية ام اجتماعية ام اقتصادية · واذا جاز لي ان استعمل تعبيراً طبياً اقول اننا لم نزل في طور الحضانة — بمعناها العلمي — لا الوصاية··· وعندي ان كلمة « انتداب » التي نزلت مع ما نزل من عصارة دماغ ولسن — رضي الله عنه — هي كلمة مغلوطة · فالانتداب هو الاشراف على كائن مكتمل انما يعوزه الارشاد · لا على الاطفال بل الرضع بل الاجنةً··

كتابُ باز

إنّ الكتّاب، والشعراء، والمصوّرين، هم رسل السعادة الروحية الى الناس.

الانسان ليس حيواناً يأكل ويشرب ويسكر وينام وحسبُ..

للانسان من اقدم ازمنة التاريخ ولوع بالملذات الادبية وفيه نزوع الى تعميمها بين الناس

هذه اساطير الاقدمين واشعارهم وتماثيلهم تطفح بالافكار والصور والاحلام العذبة نقف امامها خاشعين، طَربين بزينها وخطوطها والوانها فنقرأها ثم نقرأها ولها ابداً طلاوة الجديد، ولها دواماً حلاوة الاثمار الندية المبرّدة. فهي في حياتنا — نحن عشاق الخطوط والالوان والالحان والاحلام — مثل واحات يأوي اليها المسافر الملذوع بشمس الصحراء وبحرّ رمالها

الكتب هي الواحات المخضلّة وسط صحراء الحياة المقفرة، نقف اليها ساعةً فننهل نهلةً تنسينا مشاق السفر او تساعدنا على اكمال الطريق

فالتي تنسينا مشاق السفر وتبرّد شفاهنا العطشى لحظةً، هي الكتب الشعرية ذات الالفاظ المشبعة نحتاً وصقلاً وتوازناً وإيقاعاً. اصحابها هم المطربون المغرّدون ولانشادهم شيء من حلاوة احاديث يسوع على جبال اليهودية ومن طلاوة نشيد المؤذنين بعُيد الغروب في حيّ من احياء المدائن الشرقية النائمة...

اما تلك التي نقف اليها فنأخذ منها زادنا لمتابعة المسير فهي المؤلفات الاجتماعية التي قد تبدو ناشفة لما فيها من النظريات ومن الارقام. واصحابها هم رُسُل الاصلاح في العالم. هولاء يعيشون لنشر فكرةٍ يعتقدون ان في تعميمها خيراً للناس وقليلاً ما هم يخطئون

وكتاب باز الجديد هو من هذه الفصيلة ، كتاب يحوي ارقاماً وحوادث تاريخية نسائية . هو يسجل حسنات نساء العالم اجمع ، في الشرق والغرب والشمال والجنوب ، في الممالك المتمدنة التي تملأ اخبارها الارض وفي البلدان النائية البعيدة مثل الصين واليابان ونيوزيلاندا ، حتى وليتوانيا. لم يترك باز بلداً انجبت امرأة عظيمة يعتب عليه

لمن يكتب باز؟ هو يكتب للمرأة العربية فاذا سمى كتابهُ اكليل غار فهو يعني بهِ اكليلاً لرؤوسنا نحن النساء العربيات . فهل نستحق هذا الاكليل؟ ماذا فعلنا لاجل النهضة الحديثة؟ اننا لم نفعل شيئاً وما زلنا نتلمس الطريق.. قدَّرنا الله ان نحسن العمل لنستحق الجزاء

باز هو مصلح كبير ، وكاتب اجتماعي ثابت الايمان ، ليس في ما يكتبه بلاغة «الامام علي» ولا جزالة «ابن المقفع» . كذا يصف نفسهُ. ويزيد:

— لست بالكاتب الكبير حتى ولا الصغير!

اذا ما كان باز كاتباً كبيراً فهو فكرة كبيرة . هو فكرة كبيرة نظيفة ، نقية ، بيضاء ، مصقولة ، وبسيطة بسيطة يفهمها الطفل

فكرة باز التي يعرفها كل قراء العربية هي :

تنشيط المرأة ، اصلاح شانها . تعميم تهذيبها . فالانتفاع بمواهبها . »

وقد زادت هذه الفكرة رسوخاً ونفعاً يوم اندغمت بذاتية زوجته الدكتوره انس ، تلك المتخذة شعاراً لها ولبيتها هذه الآية الذهبية

المعرفة ، المحبة ، الخدمة

وباز في سبيل المعرفة والخدمة لا يكلّ ولا يملّ ، فكراً وقولاً وفعلاً وكتابةً وخطابةً . نشّطوا النساء ، احترموا النساء ، انتفعوا بمواهب النساء

هو ينظر الى المجتمع ويعدّ فيه الصالحين والمصلحين ثم يفتش عن سبب الصلاح والاصلاح فيرى خلف الستائر شبح امرأة ، الأم والاخت والزوج يرى المرأة الحاملة ، المرضعة ، التعبة ، الساهرة ، القلقة ، الواجفة ، الملوّعة . يري الملكة ، والكاهنة ، والعالمة ، والمخترعة ، والمكتشفة ، والمعلمة ، والممرضة ويرى تلك .... تلك المجنّدة لبثّ دعوة الحرية بين الشعوب المستعبدة وبثّ روح السلام بين الاقوياء المفترسين . تلك التي بما تكتب وما تنشد وما تخطب توحي الى الرجل آيات المجد ،فيسير ونفسه مستودَع للقوّة والمكابرة وقلبه سرٌ من اسرار الغلبة !

ثم يحوّل باز وجهه شطر مواكب البؤساء ، من اطفال مرضى ومن سكيرين ومجرمين ومستعبدين فيلتاع لانهُ يدرك ان كل هذا الشقاء ما كان ، لو فُتحت ابواب الحياة في وجه المرأة .

انهُ يشتاق الى يوم تزول فيهِ هذه المتاعب يوم يرتفع نصف العالم فيرفع العالم " نصف الكائنات مشلول ، مريض ، مستعبد ، اشفوهُ حرّروه فيشفيكم ويحرركم . لا تشكُّوا بمقدرتهِ فلا حدّ لها نقف عندهُ . آمنوا بعطفهِ وكرمه ، واخلاصهِ ، وخذوا الادلّة بالارقام "

صدّقوني ايها الناس — كذا يقول باز — صدّقوني انكم واهمون في هضم حق تلك التي يكفيها فخراً انكم نسيج يديها ودماء قلبها — ها كم الاسماء والادلّة والتواريخ أفلا تصدّقون ؟

لهذه الفكرة طُبع كتاب « اكليل غار » وصاحبهُ يطلب مني انتقادهُ ؟ معاذ الله ! ليكتفِ مني ان اسكت عن مديحهِ

وليعلم ان كتابهُ هو عاطفة اخلاص ومحبة وهذان هما — على الدوام — فوق لغويّات البشريين وفوق لغات الملائكة

وديع صبرا

لا اظن انهُ يوجد بين قراء هذه السطور من سكان بيروت من يجهل الاستاذ وديع صبرا، فقد عرفته هذه المدينة موسيقياً نابغاً وعاملاً ممتازاً في عالم الفن · على ان له مزية اخرى لا يعرفها الناس وهي العمل في بناية هذا الوطن من قبل ان يصير وطناً · لهذا اقول بفخر ان وديع صبرا هو من الرجال الذين يعملون منذ سنين في سبيل عمل لم يقدم عليه سواه لا من الغربيين ولا من الشرقيين · وهذا العمل سيفتح صفحة جديدة في حياة الموسيقى الشرقية

من المعلوم ان الموسيقى العربية الحالية مأخوذة عن الموسيقى البيزنطية وان الموسيقى الشرقية كلها غير مقيدة بالعلامات التي تتميز بها الموسيقى الغربية ولم يقدم احد الى اليوم على ربط الموسيقى الشرقية بالعلامات المعروفة بـ «النوت» — بطريقة اصولية — لان هذه العلامات وضعت للانغام الغربية · وهذه الانغام هي نفسها ناقصة نسبة الى الموسيقى الشرقية التي هي اقرب الى الاصوات الطبيعية

ان اقرب الالات الى الاصوات الطبيعية هي الآلات النافخة كالقصب والناي والفلوت وسواها و يتلو هذه ذوات الاوتار كالكمنجة والعود والقيثاره (Guitare) اما البيانو فمع انها ناقصة — من جهة الاصوات — بالنسبة الى ذوات الاوتار ، فهي كآلة اكثر ضبطاً من جميع الآلات لان من يعزف عليها لا يحتاج الى ما يسمونه (الدوزان)

على ان البيانو لاتؤدي الالحان الشرقية كاملةً ، ذلك لان الاصوات في الموسيقى الغربية تُقسم الى انصاف · اما الاصوات الشرقية فتقسم الى ارباع والى اثمان · لهذا لا يمكن لاي موسيقي مهما كان بارعاً ان يعزف على البيانو نغم « غيري على السلوان قادر » او أي نغم سواه ويأتي به كاملاً كما يأتي به العوّاد

. . . . . .

وقد خطر في بال الاستاذ وديع — وذلك منذ ١٥ سنة — ان من الممكن ايجاد طريقة تقيَّد بها الموسيقى الشرقية بارباعها واثمانها وتطبيقها عملياً على آلة مثل البيانو ولما عرض فكره هذا في استانبول سنة ١٩٠٨ قال له احدهم — لو كان هذا العمل ممكناً لسبقك اليه الغربيون

لقد وصفوا الشرقي بقلة الثبات على ان وديع صبرا يخفي وراء سكوته ارادة تفتت الصخر ولا تتفتت · فهو منذ خمس عشرة سنة يعمل لايجاد الطريقة التي حلم بها عند ما كان تلميذاً في دار الموسيقى في باريس الى ان تكلل جهاده بالفوز وتوصل الى اكتشاف ما قضى الحياة بالتفتيش عنه

اما سرُّ نجاحه فهو الثبات اولاً ثم الانقطاع بالكلية الى العمل الذي وُجد لاجله · وقد اشتهر بهذه الصفة حتى شاع عنه انه لا يعرف من امور الدنيا شيئاً الا الانغام · فلو تكلم احد امامه عن مسالة تجارية قال بكل بساطة « هذه مسالة يفهمها جيداً التاجر الفلاني ، واذا سأله احد رأيه في السياسة اجاب انَّ السياسة من اختصاصيات الكوميساريا

على انه يفهم من الامور اكثر من كثيرين غيره ولكن مبدأه في التخصص

ثابت لا يحول ولا يزول وكثيراً ما يقول النكات المستظرفة في هذا الصدد

اذكر انه ذهب مرة الى ادارة شركة الماء ليطالبها بواجبها نحوه كرجل يدفع الاشتراك ولا يأخذ شيئاً . ولما سأله ذووه عن نتيجة تلك المقابلة قال:

« استقبلني فلان وكلمني عن الموسيقى ولما صرنا الى البحث عن الانغام الشرقية رأيت نفسي امام رجل متضلع في الفن فرجعت ولم اكلمه في مسالة الماء لانني قلت في نفسي ان الرجل الذي يعرف الموسيقى الى هذه الدرجة يجهل — ولا بد — كل ما هو متعلق بالماء وشركات الماء »

ان في هذه النكتة المضحكة مثالة كبيرة فلو تخصص كل منا للموهبة التي اوجدها الخالق فيه لانقطع هذا الضجيج في لبنان وسوريا وساد مكانه العمل الهادىء المثمر . .

لنرجع الى الآلة التي اخترعها الاستاذ وديع . لقد اشتغل الاستاذ نهاراً وليلاً حتى بلغ ما يصبو اليه . وفي هذه الايام يسمع من يسكن في جواره انغاماً رقيقة كانغام العود تخترق الاثير وتحمل الى قلب كل من تتبع وديعاً في جهاده عاطفة جميلة هي الشعور معه بسموّ الفوز بعد الجهاد . وهذه الانغام تخرج من طاولة خشبية بسط عليها الموسيقي اختراعه الذي سيعرضه بعد اسابيع قليلة على البيروتيين فيعزف امامهم الالحان الشرقية على البيانو المعروف فيرون النقص فيه ثم يعزف نفس الالحان على الالة التي اخترعها فيظهر الفرق جلياً واضحاً

وقد اهتم ارباب الفن في باريس لهذا الاختراع يوم سافر اليها الاستاذ وديع في صيف ١٩١٩ وعرض فكرته على صاحب معمل بلايل الذي

كلفه ان يطلعه على كل ما يجدُّ لديهِ ووعده بصنع البيانو العربية حالما يتمُّ اختراعها

وليس صاحب معمل بلايل بالغربي الوحيد الذي يعرف قيمة هذا النابغة اللبناني فقد سبق الاستاذ لافنياك الشهير وكتب عنه سطوراً جميلة هي عبارة عن نبوءة تمت اليوم · وفي الاسطر التالية شيء من هذه المراسلة القديمة التي تدلُّ على اقرار الغربي للشرقي بالنبوغ

قال الاستاذ لافنياك :

«عندما اتاني الاستاذ وديع صبرا سنة ١٨٩٤ لم يكن يعرف كلمة من اللغة الافرنسية او علامة من العلامات الموسيقية· والحق يقال انني لا اعلم كيف توصل الى فهم الدروس التي كنت القيها عَلَى صفي · عَلَى ان نجاحه كان غريباً في بابه فقد كان يتعلم بسهولة نادرة وظهر لي ان الموسيقى شيء غريزي فيه

واليوم اصبح اصيلاً في علم الايقاع وقد برهن مراراً عديدة عَلَى مقدرة في التاليف · فهو موسيقي كامل الاوصاف وليس هذا كل ما يقال عنه فهو ممتاز بفضائل سامية وباخلاق رضيَّة وقد عرف ان يجعل نفسه حبيباً الى كل رفاقه والى كل اساتذته· اما انا فاسرٌ لانني ارى فيه — ما عدا التلميذ البارع — الصديق الحقيقي وانني له كذلك

وكتب عنهُ الاستاذ نفسه في احدى المجلات الموسيقية ما ياتي :

ان ما يجب الفات النظر اليه هو مقدرته الفنية المضاعفة · فهو الموسيقي الوحيد الذي يعرف الفن الغربي والفن الشرقي في وقت واحد

اما مواهبهُ الموسيقية فلم ارها في احد من ابناء الشرق· لقد قدم فرنسا

فتى وتعلم فيها الموسيقى الغربية على انه لم يهمل موسيقى بلاده فهو يسافر من حين الى آخر الى وطنه ويدرس فيه الموسيقى الشرقية ولولا التوازن المتين في قواه العقلية لما نتج عن هذا الدرس المختلط سوى الاضطراب والتعقيد . على ان وديع صبرا قدر ان يملك ناصية الفنّين في وقت واحد فبينما هو يشتغل في تعميم الموسيقى الاوروبية في بلاده نراه في باريس يشتغل بدون ملل بين ارباب الفن ليحبب اليهم الموسيقى العربية ويكشف لهم مخبآتها

ويلذ لي ان اصرح ان وديع صبرا هو استاذ ذو مكانة سامية فهو يكتب ويتكلم لغتين من لغات الموسيقى مختلفتين كل الاختلاف . ويفهم جمال الاثنين على حد سواء . وهذا حدث مفرد في تاريخ الفن »

. . .

هذا ما يقوله عن وديع صبرا كبير من كبار الموسيقيين في الغرب . ويسرني في هذه الفرصة ان أنشر هذه السطور « عسى ان يصير للانبياء شيء من الكرامة في وطنهم »

احجار الزاوية

هُم ، في نهضتنا الحديثة ، اولئك الرجال تلامذة مدارسنا الاولى، الذين استناروا بالعلم يوم كانت البلاد كلُّها في جهل عميم ، فجعلوا حياتهم وقفاً على الامة وقضوا عمرهم بتعليم ما به علموا

نعدُّهم ولا نعدّد مآثرهم . وهل تعدّ حسنات البستاني واليازجي والحوراني وسركيس واسحق والحدّاد ونمر وصروف وزيدان ؟ هل تُحصى خدماتهم في عوالم اللغة والادب والعلم والتاريخ والسياسة ؟

الحقُّ انها لا تحصى ولا تقاس بميزان، هم مدارسنا من قبل هذه المدارس وبعد هذه المدارس . اجل ان الصحافة العربية من جرائد ومجلات هي التي حملت المشعل فاستنارت البلاد ، هي كانت منبر الاحرار والمصلحين في ايام الظلمة ، هي التي نقلت الينا اخبار الحرية والمتحرّرين ، واخبار العلم والمتعلمين ، هي التي بما انشأت وما عرّبت ومانقلت وما حفظت اوجدت في الشيوخ عادة المطالعة وهيأتهم لقبول فكرة « الانفاق على البنين في سبيل التعليم »

وجرائدنا هي مدارسنا من بعد ان فتحت هذه المدارس . . . . . هي وحدها اليوم (المدافع الضعيف الوحيد) عن لغة تُقتَلُ في المدارس والنوادي والمحاكم وفي دور الحكومة . جرائدنا لا تزال — والحمد لله — تدخل الى العيال ، ولا بدّ ان يقع نظر الاولاد (المتفرنجين) عليها من حينٍ الى حين ، فيقرأون ولو سطراً يذكّرهم ان لهم لغة قومية وكرامة قومية

نحن اليوم نقرأ ، ونقرأ كثيراً ، وذلك بحرية وسهولة · كل المطبوعات تدخل الى البلاد بدون مانع ولا زاجر · ولكن اذا رجعنا بافكارنا الى ما قبل الدستور وذكرنا انّ ما كنا نقرأه كان قيد مراقبة « المكتوبجي » قدّرنا جهاد الكتّاب البيروتيين امثال المرحومين خليل سركيس والعازار وحبيقه ، وامثال الاحياء كالبدوي وزينيه والعقّاد وسواهم ، الذين لم يهاجروا بل بقوا خدّاماً لفكرة الاصلاح وللاداب العربية يوم كان السجن والنفي قصاصاً خفيفاً لمن يخالف الارادة الشاهانية ويتعمّد (تخديش الاذهان)

نذكر جهاد مجاهدينا ايام الاستعباد فنحني رؤوسنا اجلالاً · ولكنّ هنالك صفة اخرى وجب علينا تقديسها · وهي الثبات · فالجهاد يسمّى جهاداً اذا تناول الحياة بكاملها · ان يبدأ الانسان عملاً في شبابه ولا ينفكّ عنه الى سواه ، ان يمارسهُ ويتقنه بالدرس والصقل والمران حتى يصبح عملاً تاماً · لان الاولوية والافضلية هي لتلك الاثمار الناضجة ، يمرّ عليها الشتاء وتزهر في الربيع ، وتنضج في الصيف فتُقطَف في الخريف

الاعمال في بلاد الغرب مثمرة ومتقنة لان الغربي يثبت في عمله الى ان يموت فيسلمهُ الى ابنائهِ كاملا · كذا كان عمل خليل سركيس رحمهُ الله وكذا سلمهُ الى ابنهِ من بعدهِ · كانت ادارة سركيس الأب مثالاً للصدق والثبات والاتقان والاخلاص وهي لكذلك في ايام سركيس الابن

عاش الاب في ابنهِ

وعاش الابن لابنائهِ ولابناء ابنائهِ

الى جامعة السيدات

انَّ في بيروت اليوم حركة نسائية مباركة · حركة يُقصد منها السير في طريق التقدم · والتقدم في نظري هو الذي ياخذ بحياة الامة من اربعة اطرافها فيتناول الاخلاقيات، والعلميات ، والعقليات ، والاقتصاديات· و يوجد نقطة خامسة ولعلها الوسط لا الزاوية · هذا الوسط يسمى السياسيات او حياة الامة السياسية · · ·

ولكن الحكمة والمنطق والتعقل تقضي على النساء بعدم تناول السياسة· وهنا لا اتكلم عن السياسة بوجه العموم ، فللنساء الاوروبيات فيها نظرية خاصة بهن نشأت من نفس احوالهن · هذه النظرية تدفعهن الى الدخول في الحياة السياسية لان فيها المناصب الكبيرة · وكبيرات النفوس في اوربا يشتغلن للوصول الى المناصب الكبيرة لا لاجل التنفذ فيها ولكن لان منها تسنّ الشرائع والقوانين ومنها تصدر مقدّرات الامة · والامة يا سيداتي مجموع عائلات كثيرة وفي هذه العائلات يوجد أناس غير الرجل الغني ، الرجل التاجر ، الرجل الوزير ، الرجل السيّد · يوجد اناس يدعون ارامل ، وعمالاً ، وعاملات واصحاب عاهات ، ورقيقاً ابيض ، وايتاماً واطفالاً جنى عليهم السكر والفساد الفظيع ، فدخلوا الى هذا العالم لاجل العذاب ، لاجل العذاب فقط يا سيداتي

لاجل تحسين حالة هؤلاء طرقت سيدات الغرب ابواب السياسة · ولكن السياسة عندهم مرتكزة على قواعد معروفة · فهي في الامة ومن الامة·

وهي منذ مئات السنين تتطوّر ضمن قاعدة النشوء والارتقاء، اللازمة الملازمة للامم
ان سياسة الغربيين مبنية على التجربة والاختبار — سياسة شيوخ، سياسة بلدية وطنية

اما سياسة هذه البلاد، فلا حنكة فيها ولا خبرة · واحياناً لا اعتقاد صحيح ولا مذهب قويم · ولقد قلت ان الحكمة والمنطق يقضيان على نسائنا بعدم المداخلة فيها ليس لكونها سياسة بل لكونها سياسة اوحال · والمرأة في نظري درة مكنونة لا يجوز طرحها في الاوحال ·

. . . . . .

اذاً على نسائنا الطالبات التقدم ان يأخذن باربعة اطراف الحياة · الاخلاقيات، والعلميات، والعقليات، والاقتصاديات · ليمشينَ في طريق لهنّ فلعلهنّ يلتقين في آخرها بالرجل وقد اخذ نصيبه من امثولة السياسة ·[1]

ولقد وجهت مقالي هذا الى جامعة السيدات — ولي املٌ كبير بهذه الجامعة حقق الله امالي — وما قلته اعلاه لهن ليس بالجديد · فقد فهمنَ قبلي ضرر السياسة وفي قانونهن بند يقول ان الجامعة تسعى لرفع المرأة وتحسين حال العائلة ·

اما الذي اقوله الآن فهو هذا :

النساء هنّ نصف العالم، وعليهن نصف العمل · ولقد تألفت قبل الآن

---

(١) حقاً اخذ نصيبه

جمعيات كثيرة في بلادنا ورأينا عدم فائدة اكثرها وقلة فائدة بعضها

ذلك لان اعمالنا تقوم بالكلام والكلام لا تقوم به الامم · منذ عشر سنوات ونحن نحضر الحفلات الخطابية ونسمع القصائد فلم نتقدم كثيراً في طريق التجدُّد الفعلي · فعلى الجامعة الآن ان تاتينا بالاعمال السريعة لنشعر بالتحسين السريع ولا يمكن للجامعة ان تاتي بالاعمال بدون ان تكون قوية الجانب مسموعة الكلمة · فلا قوة للجامعة بدون المال ولا كلمة مسموعة لها الاَّ اذا انتشرت غايتها في كل حي من احياء المدينة ·

افهم بلفظة الجامعة حلقةً قوية تضم السيدات في بيروت او نقابات تمثل سيدات بيروت · واودُّ لو وجد في جامعة السيدات لجنة خاصة قوامها اعضاء من كل الجمعيات النسائية والمدارس النسائية في بيروت ، كجمعية زهرة الاحسان ، وجمعيات السل ، وجمعية مستشفى القديس جاورجيوس ، وجمعية الاعمال الخيرية للفتيات المسلمات ، ومدرسة تهذيب الفتاة ، والمدرسة السورية الاهلية · الخ

لو وجدت هذه اللجنة التي هي عبارة عن نقابات نسائية قوية ، لقوي شأن الجامعة وشأن النساء في بيروت وقدرنَ في وقت قصير ان يعملن اعمالاً كثيرة تعود بالخير على الامة

وربما يقول البعض وماذا تفعل نقابات النساء ؟ فاجيب ان هذه النقابات تمثل عدداً عظيماً من نساء البلد وللكثرة تأثير لا يمكن ان يناله الفرد ، فيمكن للجنة النقابات — مثلاً — ان تدرس مدةً من الزمن نظامات التعليم في مدارس بيروت كلها وترفع بعد درسها تقريراً لمن يدهم الحلُّ والربط · فتبين

وجه الخطإ في نظام ووجه الصواب في غيره

ويمكن للنساء ان يهتممن بامور الصحة ، فيدرسنها درساً وافياً وينشرنَ النشرات الاسبوعية او الشهرية ، ويرفعن التقارير الى البلدية والى مديرية الصحة ، وهذه المراجع تعرف معنى تعب السيدات وتعير كلامهنَّ التفاتاً ، وكلام السيدات افعل من كل ما تكتبه الجرائد

كذلك يمكنهن ايضاً ان يهتممنَ بهمَل الايتام ، وبصغار المتشردين ، فرجال الحكومة لا يردون طلب السيدات اذا هنَّ ابدينَ رغبتهنَّ بايجاد محلات جديدة للصغار واصلاح المحلات القديمة

ان اسباب التسلية والرياضة للاولاد مفقودة تماماً . ففي اوربا يذهب الولد مرة في الاسبوع الى محل السينماتوغراف فيرى على الستار صورَ وقائع وامور تاريخية لو اراد ان يتعلمها في كتاب لقضى شهرين في درسها . فلو طلبت عائلة واحدة من العيال البيروتية الى ادارة السينما ان تستجلب لها الصور التاريخية لاجل تسلية الاولاد لما اجابت الادارة لها طلباً . ولكن اذا رُفع تقرير الى تلك الادارة موقعاً من عشرين جمعية نسائية لبادرت الادارة حالاً واحضرت صوراً خصوصية للاولاد فيها التسلية والادب والفائدة

واي شيء لايعملنه سيداتي الناهضات لو قصدنَ اليه ؟ ان صوت المرأة من صوت الله ، وما تريده المرأة يريده الله ، فالى الامام ياسيداتي في توسيع الجامعة وتوسيع غايتها . حفظكنَّ الله

على ذكر اللغة العربية

اكراماً لجامعة السيدات

انني لا اذكر مرة ما تفعله هذه العصبة النسائية في سبيل الوطن الا وتنتفض نفسي بعاطفة غريبة هي مزيج بين الاعجاب والحنوّ والشفقة. انني اعجب بسيدات تتوق نفوسهنّ الى عمل الواجب فتثب نابضةً ، مختلجةً تائقة ، صارخة وسط هذا النزاع بين الموت والحياة ، يا هولاء انظروا فيّ الى بوادر الحياة ! !

انني لاحنو واحنّ الى رفيقات يغرفن ماء البحر في صدفة ، معتقدات بكل ما في قلوبهن الطيبة من البساطة ان اقتراحهنّ في موضوع اللغة العربية سيأتي بنتيجة في احياء هذه اللغة التي نقف امام حبها خاشعين ، قلقين ، حذرين كما يقف العابد امام المعبود !

وانني لاشفق على نفسي وعلى امتي ، عند ما انظر بعين الفكر الى البناء الذي لم تضع فيه الامة حجراً واحداً والى الاتربة والخرائب والجماجم القائمة امامنا كالجبال والتي لن تزاح و يقوم مقامها البناء الجديد الا بعد ان تصبح عظامنا رميماً !

. . . .

لنعد الى سيداتي والى اقتراحهن ، وهذا رأيي على وهنه

علاقة الوطن باللغة او اللغة بالوطن ? هذا تحصيل حاصل وانني لأعجب

كيف يمكن لكاتب ان يطرق هذا الموضوع · ففي دماغي الصغير — الذي هو قبل كل شيء دماغ امرأة — لا يمكن للقوّة المفكرة ان تفهم من المسائل الا ما كان بسيطاً ، جلياً ، واضحاً ، لهذا لا اراني مدفوعة الى تحويل هذه القضية من بسيطة الى مركبة لاضيع في لوالبها وتعاريجها ·

فالوطن واللغة في فكري واحد لا يتجزأ والعلاقة بينهما صريحة لا تحتمل التاويل فلا وطن بدون لغة ولا لغة بدون وطن وليس من حاجة لاثبات ذلك بالمنطق

اما البحث في خير الوسائل لترقية اللغة فيعجبني جداً وفيه اقول :

ان ترقية اللغة في امة من الامم هو عمل من الاعمال الكمالية تتفرّغ لها الامة بعد ان يكتمل نموّها · فنمو الامم يكتمل عند ما يسود النظام ولا يسود النظام في مملكة بدون ان تستوي احوالها الاقتصادية في مستوى راق · ومتى أثرَتْ الامم تفرّغ افرادها الى الكماليات فاوجدوا العلوم والفنون وكل ما نشاهده من المميزات في الامم الحية

فترقية اللغة امر كمالي يأتي الينا صاغراً بعد ان تنتظم احوالنا الاقتصادية ، وتأخرنا الاقتصادي هو عقدة العقد لا يحلها الا الانتاج وزيادة صادراتنا على الواردات · وهذا النقص في الانتاج لم يسببهُ الاحتلال الاوروبي ، ولا الهجرة الصهيونية الى فلسطين ، ولا تقسيم سوريا الى ادارات مركزية · هذا النقص في الانتاج سببه الكسل ثم الكسل ثم الكسل · فاقتصادياتنا تئن من الاهمال كما تئن لغتنا وكما يئن كل شيء في بلادنا

قلت ان ترقية اللغة هو من الامور الكمالية فاذا اردنا ان نصل الى

الكماليات يجب ان نهتم بالاوليات . هل رأيتم رجلاً يشتري اثاثاً وتحفاً قبل ان يستاجر بيتاً ياوي واهله اليه ؟

فاذا وصلنا الى ذلك اليوم السعيد الذي نتمكن فيه من الاهتمام بالكماليات ننصرف الى ترقية اللغة على الاسلوب الذي ستقرأه ايها القارىء – ولكن بشرط ان لا تضحك

١ً نقيم معاهد علم وطنية تُعلِّم فيها كل العلوم الحديثة بلغتنا ، وتفوق المعاهد الاجنبية الموجودة حالياً في البلاد لنتمكن من مزاحمتها والقضاء عليها

٢ً نقيم هذه المعاهد باموال الامة اذ لا يجب ان نمزح ونعتمد في هذا الامر على الاباء اليسوعيين ولا على عمدة الكلية الكرام . ولا ان نسترسل في المزاح – بل في الدلال – ونطلب من الحكومات الاوربية ، افرنسية كانت في سوريا او انكليزية في فلسطين ، ان تبني لنا المعاهد الوطنية

٣ً نوجد مجمع علوم كبيراً عدد اعضائه مئتان بينهم الاطباء والكيماويون والمهندسون والفقهاء والموسيقيون والفنّيون فيتفرغون لترجمة الوف المجلدات ونقلها الى اللغة العربية في كل فرع من العلوم الحديثة وذلك لنتمكن من تعليم اولادنا كل العلوم باللغة العربية

٤ تقوم الامة بنفقات هؤلاء العلماء . لا اوروبا . لان الغرب لا يعطينا قطعة نحاسية الا ويدخل معها الى نفوسنا ما يعادل وزنها من السم . فلكي لا نتشبع من السم الاوربي ولكي لا نتهم بنكران الجميل وجب علينا ان نترك مهنة التسوّل

هذه هي خير الوسائل لترقية اللغة العربية ! ! ولما كانت هذه الوسائل

صعبة لا تنال اليوم وكانت الامة تريد شيئاً تضعه على النار — كما تقول العامة — فانا ادلُّ الذين تأكلهم الغيرة على اللغة على طريقةٍ ، وهي ان يقاطعوا المدارس الاجنبية بأن يتولوا تعليم اولادهم في بيوتهم فهذه احسن وسيلة نجبر بها هذه المدارس على الاهتمام بلغتنا

ولما كان لا يوجد فينا شخص واحد يقدم على هذا الامر فانني انصح لقومي ... بالصبر و ... بالسكوت فهو اولى

هذا وانني اطلب من سيداتي اعضاء الجامعة ان لا يغضبن لكوني لم اقل ان ترقية اللغة مسألة بسيطة فكل شيء اهون من غضبكن ياسيداتي

الى روح ابي امين

"١"

يجتمع كبار الامة اليوم لتكريم فقيدها مرة ثالثة . وفي هذا كل الاثبات على ان في الوطن من يعتقد ان احمد مختار اتى في حياته عملاً يستحق من اجله الاكرام

ان ابا امين ما كان كاتباً ولا خطيباً ولا شاعراً ولا مشترعاً . انه ما كان لغوياً يقضي السنين منحنياً على المخطوطات القديمة ليجد فيها كلمة تضاف الى معاجم اللغة، ولا عالماً يفني حياته بفحص ملايين الذرّات ليكتشف حقيقة حيوية جديدة . انه كان عاملاً نشيطاً في سبيل النهضة النسائية

ايها الكرام . اذا ما ذكر التاريخ رجال نهضة الشرق فسيذكر في طليعتهم قاسم امين وابا امين

اما قاسم امين ربيب وادي النيل ، فقد ارسل اراءه النظرية في محيط يعدُّ بين رجاله امثال محمد عبده والمنفلوطي وحافظ وشوقي والمطران ونمر وصروف وزيدان وسواهم

واما فقيد بيروت فبدون مقدّمات او نظريّات ، تقدم وفتح باب الامة على مصراعيه ، واخذ بيد كرائم المسلمات وقال لهنّ هذه ساحة العمل ، هنا ايتام تطلب الرحمة وهنا نسوة تعيش على قشور الفاكهة ، وهنا اولاد ينشأون

---

(١) كتب هذا التأبين لحفلة التذكارية السنوية التي اقيمت للمرحوم احمد مختار بيهم نصير المرأة المسلمة في دار الصناعة في ٦ شباط سنة ١٩٢١

متمرغين في الشوارع وتحت دواليب العربات فكانت اذ ذاك الجمعية المعروفة [١] وكان من حسناتها النادي ومدرسة النادي وهذا المصنع ودار الايتام . اخذ ابو امين يد من تفتخر بهنّ بيروت ، ومن خلال الحجاب الكثيف اطلّ بهنّ على هذا المجتمع حيث تراكمت انقاض ماضينا المظلم وقال لهنّ ، لكنّ من نفوسكنّ النيّرة ما يقيكنّ العثرات : تقدمنَ في طريق النور

يعتقد البعض ان من يقول للمرأة المسلمة ان تساعد في ترميم الوطن المتهدم انما هو يدفعها الى نزع الحجاب . هذا البعض مخطىء في ظنه لان مسألة الحجاب في نظر من يجاهدون مسألة جزئية لا تستحق ان يقف عندها مفكر

المهم هو ان يكون عندنا نساء يعرفنَ ما عليهن من الواجبات وما لهنّ من الحقوق ولاجل هذا الامر وضع احمد مختار حجر الزاوية في النهضة النسائية الاسلامية

فاذا ما جاء اليوم الذي تصبح فيه المرأة كائناً كاملاً عليه واجبات وله حقوق ، تذكر الامة فضل الرجل الذي خدمها باخلاص

وكأني بكم تقولون « العلنا ناسون فضل الرجل ؟ فاذا كنا غير مقرّين بفضله فما معنى اجتماعنا لتكريمه ؟ »

ايها السادة . ما تمكنت السنة الماضية من حضور الحفلة التذكارية التي اقامها نادي السيدات للفقيد الكريم . على انني ارسلت كلمة جاء فيها : اذا اردتم ان تكرموا الرجل فكملوا العمل الذي بدأ به . فحرام ان تموت هذه النهضة بموت احمد مختار

---

(١) جمعية الامور الخيرية للفتيات المسلمات

والان اراني اتردد بقول هذه الحقيقة المؤلمة وهي ان الحفلات التأبينية قليلة الفائدة اذا كانت النهضة لا تزال حيث كانت. اذا رجع كل منكم الى نفسه، انتم الذين تكرمون الفقيد وتعرفون قيمة العمل الذي بدأ به، اذا رجع كل منكم الى نفسه وسألها ماذا فعلت في البناء الجديد؟ ياخذ جواباً لا شيء.

ايها السادة، لا شيء! — فالنادي لا يزال حيث كان، والمدرسة حيث كانت[1] والمصنع حيث كان. ان الوقوف في علم الاجتماع يعني التأخر، لان من لا يركض في عصر الطيران هذا يدعى واقفاً، ومن يقف يرى جماهير الراكضين تسبقه، ومن يُسبق فهو متاخر

ايها الكرام، لا اقصد هنا ان اطرق موضوع النسائيات الذي لا نبحث فيه لسوء الحظ الا لنتكلم عن التافهات كموضوع الملابس القصيرة او الطويلة الى آخر ما هنالك من الجزئيات التي نلهو بها اذ ليس لنا ما نلهو بسواها

هل نحن نريد حياةً استقلاليةً كاملة؟ هل نريد هذه الحياة حقيقةً ام نريدها بالكلام؟ — كما نريد كل شيء —

لا حياة كاملة بدون نهضة قومية ولا نهضة قومية بدون نهضة فكرية ونهضة فكرية يقوم بها الرجل وحده تدعى نصف نهضة لان النصف الثاني الذي يتألف منا، نحن النساء، لا يزال لسوء الحظ مقعداً كسيحاً

لنذكر كلما جاء ذكر الفقيد — وما اكثر ما تذكرونه — اننا على باب حياة جديدة وان علينا ان نعمل كل يوم بل كل ساعة بل كل دقيقة، لنذكر اننا نطالب بحقوق الشعوب الحية فلنعمل عملاً واحداً يدل على الحياة

---

(١) ليت هذه النهضة بقيت حيث كانت! مات النادي ومدرسة النادي بموت احمد مختار

تحية النهضة

«١»

رايت منذ امد الشاعر الاديب ميشل ابي شهلا ، فقال نطلب خطاباً لجمعية النهضة الادبية · قلت ودّعت المنابر منذ سنوات · قال كلمة في الحي الذي نشأتَ فيه · قلت بعيني الحيّ ومن فيهِ وفي انسانها منزلة القائمين بهذه الحركة المباركة

فيا اهل الحي سلام · واذا القيت سلامي عليكم فانما انا القيه على افراد العشيرة التي عشت بينها اياماً جميلة ابقت في قلبي اعذب واجمل واحسن ما يحفظ في تلافيف الذاكرة

كل شجرة من هذا الحي ، وكل عطفة فيه ، وكل بيت من بيوتهِ وكل حفنة من رمالهِ وكل رنّة من ناقوس معبدهِ هي اناشيد خالدة اسمعها كل مرة ازور الحي ولها في اذني طلاوة وفي قلبي عذوبة وفي نفسي عبادة

وكيف لا اذكر المكان الذي يضم رفات والدٍ صالح بكل ما في كلمة الصلاح من المعنى، ورفات والدة نشيطة صبورة حنون كانت صورة حية للمثل الاعلى

ان هذه البقعة من الارض تذكرني بالحياة البسيطة التي عشناها بالامس كلنا والتي ذهبت من هذه البلاد ولن تعود · تلك الايام نذكرها بشيء

---

(١) خطاب تلته في حفلة جمعية النهضة الادبية في المصيطبة في اوائل سنة ١٩٢٢

من التوجّع اذ كنا فيها بعيدين عن الافكار الغربية وعن تيار المدنية الحديثة المندفع كالسيل الجارف

ايها الكرام لن اقتل الان وقتكم بما لا يفيدكم فمن التذكارات القديمة ساستخلص ذكرى واحدة ابني عليها موضوع حديثي معكم

اذكر من طفولتي المدرسة الصغيرة الابتدائية ورئيستها الفاضلة التي هذّبتني وهذبتكم، ومما اذكره جلياً هو التأثير العميق الذي كانت تتركه في نفسي زيارات السيدات الافرنجيات لمدرستنا. وزيارات الطبيب الافرنجي لبيتنا وزيارات السيدات الانكليزيات لبعض تلميذاتهن القديمات . واذكر — وهنا يغشي افكاري ضباب — عائلة انكليزية كانت ترسل اولادها الى المدرسة التي كنت فيها حيث كنا كلنا، معلمات وتلميذات ، ننظر الى هؤلاء الاولاد كما لو كانوا اولاد آلهة

واليوم ارجع الى نفسي وأسالها عن مصدر هذه السطوة التي كانت للافرنج علينا ونحن صغار . تلك السطوة المعنوية المحتلّة نفوسنا قبل الاحتلال العسكري لبلادنا بزمن مديد

مصدر هذا التسلط المعنوي هو شعورنا باننا دون الغربي تهذيباً وعلماً ، فهل هذا صحيح ؟ وهل نحن دونهم حقيقةً ؟ واذا كان من فرق بيننا وبينهم فهل هو عظيم بهذا المقدار حتى نحني الركب ونعفر الوجوه ؟

لسنا دونهم في التهذيب النفسي الخصوصي . ولكننا دونهم في التهذيب بمعناه المطلق اي في التهذيب العلمي والاجتماعي

والفرق بيننا وبينهم كبير وصغير . هو كبير اذا بقيت حياتنا فوضى .

ووطنيتنا اديان ومذاهب وطوائف · واحزابنا شخصية نفعيةً · وهو صغير اذا وضعنا الجهاد نصب عيوننا وقلنا حيّ على النظام وعلى العمل وعلى الفلاح

وكم يمتلىء قلبي سروراً عندما ارى هذه الفئة العاملة ، ابناء هذا الحيّ العزيز ، ينتظمون جماعة ويؤلفون نهضة حية غايتها الاصلاح والتهذيب

ايها السادة والسيدات · لا حياة لنا بدون نهضة ادبية · ولا نهضة ادبية بدون نظام · ففي كل يوم وفي كل ساعة نشعر بفقد هذه القوة الهائلة التي يتميز بها الغربي والتي تذوب امامها كل فضائلنا النفسية وكل مزايانا الطيبة وكل رغائبنا الصادقة

كنت اتباحث مرة مع احد الغربيين عن حالة البلاد الحاضرة ، فقال لي : بلادكم لمّاعة غرّارة تضيء من بعيد كلمع السراب · لكن لامنطق في بلادكم ولانظام · ولا هيئة معروفة يمكن وصفها · معاهدكم شخصيّة وجماعاتكم فردية · واحزابكم نفعية · اكتبي وانتِ كاتبة لهذا الشعب ان يتنظَّم · تنظموا ابنوا اساساتكم ·

قلت له — لمن اكتب وليس من يقرأ · لقد سُمِّمت افكارنا بكتب الغرب واصبحت اللغة العربية شيئاً قديماً لا يتنازل لهُ ابناء هذا الجيل ·

قال — اكتبي لعشرة اشخاص اكتبي لاثنين · اكتبي لواحد · واذا ما وجدت هذا القارىء الوحيد فاكتبي للاجيال القادمة

وسافر هذا الغربي الى بلاده وكتب لي من هناك : ايتها السيدة انني اتأسف عليكِ وانت في عنفوان العمر ان تدفني هبة يمكنك ان تنفعي بها امتك ،

كلكم في هذا الشرق كسالى كلكم تعيشون كما لو كانت الحياة الف عام ، نصيحتي اليكم ان تؤلفوا جماعاتكم وتؤسسوا معاهدكم »

فيا ايها السادة اعضاء النهضة الادبية

لقد اثرت بي كلمات هذا الغريب فانصببت على العمل . فانا مثلكم اجرّب ان انفع امتي بهبة اعطانيها الله . وكعاملة في حقل الامة احييكم اذ ارى طلائع العمل في هذه النهضة المباركة ، جعلها الله بنشاطكم وتآلفكم واتفاقكم نواةً حية لحياة كبيرة تتوحد فيها افكار هذه الجماعة فتسير في الطريق الذي سارت عليها الجماعات التي نحسدها

يا ميّ

«١»

لقد سار اسمك في الاقطار العربية، فتسلطت ذاتيتك السامية على قلب كل من يقرأ الضاد واتخذت لها مكانة عالية لم تصل اليها كاتبة في العالم العربي

هذه كلمة حق وقائلتها فهمت معنى هذه الذاتيَّة الجذابة، الغنية بكل مواهب العقل والقلب والروح. يوم قرأت كتابك الاوحد «باحثة البادية»

كنت تعبة من كل ما كُتب وما قيل، وعاجزة عن قراءة اي كتاب عربي دفعة او دفعتين او ثلاث — هل هو ملل او اكتفاء، او ظماء او جوع الى غذاء كامل يشبع نفسي، ام ان الحياة فيَّ هبطت الى سكون لا توقظهُ اصوات الحياة العادية؟ لا ادري! كل ما ادري هو انني اخذت هذا الكتاب في احد الامساء ولما وصلت الى الصفحة الاخيرة منه اذا بنور القنديل يحمرّ امام انوار الفجر البيضاء الداخلة من النافذة فوق راسي واذا بنفسي تصرخ — كما صرخ ابن نابوليون يوم لقي البطل فلامبو — واخيراً لقد ظفرت بواحد! — واذا بروح «مي» الساحرة وقد أشبعت ظمأ قلبي توقظ في روحي المستكنة عوالم لا تعدُّ ولا تحصى

هو الكاتب الكبير يجمع المنطق والبلاغة والجزالة، اقول؟ — آه ما

---

(١) خطاب القته في الحفلة التكريمية التي احيتها عصبة الادب في النادي البيروتي للنابغة ميّ في ٢٢ تشرين الاول سنة ١٩٢٢

افقر المعاجم بين ايدينا — هو يجمع شلالات الحياة بكل ما في الحياة من ثروة وفيض وغنى وتجدّد، ومن وثبات تهب نابضات على عدد الثواني و يطلقها على الناس فتسير كقوة خالقة تشبع وتروي وتبعث الفكر النائم من ظلمات الصمت والسكون

هذه مي كما رايتها في باحثة البادية · مي المخلصة · يؤلمها ان تذهب حياة صديقتها ضياعاً فتكرّس كتاباً بكامله لتكريم الصداقة بعد الموت

مي الوصّافة ، ترسم بالكلمات :

« الوجوه والآفاق والليل والكواكب فتنبض في الالفاظ الجامدة حياة مربعة متقدة بهيجان الغضب وانين الشكوى ورنين الظفر وتهتز للالفاظ تارة كالاوتار وتولول طوراً كامواج البحر العجاج وتهمس حيناً همساً عجيباً كبهم الآمال القصوى »

بهذه الموسيقى تصف مي الكاتب الحقّ · وياحلاوتها من وصّافة ما وصفت الاّ نفسها !

ومي الجريئة تعالج امور الشرق بجرأة ما عرفها الشرق فتقبض بيدها على علة العلل، على الاتكالية المهرأة ، البالية ، وتقول بهذه البلاغة :

« كلنا معجب بفصاحة القرآن ونعزو اليه فصاحة العربية عند المسلمين واستقامة لفظهم وجمال منطوقهم وفخامة اسلوبهم الكتابي ، لانهم يستظهرون آياته صغاراً و يستشهدون بها كباراً · الا ان فصاحة الكتاب الحكيم وجماله قد عوّدا القوم الكسل الفكري فصاروا اذا ما ارادوا الافصاح عن رأي او نظرة اهملوا اجهاد القوى المولدة مطمئنين الى ضرب آية قرآنية — او حكمة شعرية — مثلاً ، تاركين قرائحهم في حالة الجمود مستكنات ، وعليها خيوط العنكبوت تخيم آمنات ،

وما الطفها اذ تستدرك

« بيد ان هذا الانتقاد الذي يصح عَلَى الاكثرية لا ينطبق على اقلية لبيبة ان هي استعملت الاية القرآنية عند الحاجة فان لها اسلوبها الخاص · وقد تنسج عباراتها على وزن

عبارة القرآن بنزعة فطرية · واضعة الفاظه لمعنى شخصي وبشكل جديد يسترق السمع ويستأثر بالمخيلة قبل ان يبلغ افق الادراك »

وبهذا اللطف نفسه تشرح افكار باحثة البادية فتقول في صدد تعدّد الزوجات :

« العجز يجعلني قاصرة دون تشخيص هذه العلل الغريبة لانني فتاة مسيحية ومهما تفهمت هذه الاوجاع بقلبي النسائي فانها تظل عندي خيالية ليس غير »

ما الطفها تنتصل من تشريح هذه العلة الغريبة عنها ! ! ولكن هل هي غريبة عنها ؟ وهل تعدّد الزوجات محصور في طائفة من الناس دون سواهم ؟ المرأة مظلومة في كل مكان ووفرة الزوجات — على ما نعلم — شائعة في الغرب كما في الشرق · اسمعوا قلبها الوجيع ينتصر لنساء الارض جميعاً ! اسمعوه يردّد زفرات نساء العالم المعذّبات ويئن :

« يخاف الناس ويرجون ، ويكرهون ويرغبون وظلام الامل مخيم عليهم · فيبحثون عن الاصدقاء والمساعدين والمؤيدين ! ولكن أليس هؤلاء الذين نحبهم ونختمي في قلوبهم من مكايد الايام هم الذين يسكبون سيال الالم في كؤوسنا صرفاً ويتفننون في التعذيب كانما الطبيعة ائتمنتهم على اسراره »

اما كاتبة هذه السطور التي تجرّب اليوم في خمس دقائق ان ترسم خطوطاً صغيرة لذاتية مي الكبيرة فانها تعبد هذا السحر الحلال

ومي الوديعة ، تتكلم في الادب والشعر والاجتماع والعمران ، تتكلم عن اطلاع جم وعلم صحيح · برسوخ ومتانة لا يفوقها فيهما اقوى الرجال حجة · ولكنها في كل مواقفها اديبة · اديبة ماسمعتها تتكلم الا وفي صوتها رنة استفهام عميقة وكأني بها تقول « لعلي مخطئة ؟ » بهذه الرقة تتقدم مي الى المواضيع التي عالجها قاسم امين فهزّ وادي النيل تلك الهزة العنيفة · فتبدي رايها ولكن بعد ان تقول :

« ليس لي رأي ازاء ما يرتئيه اساطين المسلمين »

ومي الصادقة الصريحة ، تقول الحق لانها تعتبره حقاً وانصافاً ، تقوله صراحاً بدون محاباة ، لا تراعي فيه حتى ولا المحبة — كذا تقابل بين الباحثة وقاسم امين . وهذه المقابلة مع ما سبقها من البرهان وما تبعها من الاستنتاج هي آية في الابداع . خلاصتها ان الباحثة تصلح كامراة . وكامراة هي مقيدة بالعادات والتقاليد ، حذرة ابداً . هي تحوم فوق بيئتها ولكنها لاتزال خائفة، وما احسن « مي » تصوّر لنا الباحثة وحيدة في فكرها ، تصرخ وسط وحدتها لتوهمنا انها غير خائفة

اما قاسم فهو امين مما يقول . سلطان كصاحب الحق . شاعر بدون خوف ولا ارتعاش انه يقول الحق . لذلك هو يجلس على كرسي القضاء ويطلب تحرير المراة حباً بالسعادة الحلال . تلك السعادة التي يريدها لامه واخته وزوجته

هذه هي ميُ ايها المواطنون . مي الوصاّفة ، العالمة ، الجريئة ، الوديعة ، الرقيقة ، الصريحة

وهنالك « ميّ » ثانية تتطوّر مع الدقائق وتتجدّد عند كل شروق وكل غروب . تلك « مي » الجديدة بعد ان زارت لبنان وساهرت نجومه في لياليه الخلاّبة . مي الجديدة السباّقة في نشر دعوة لبنان اياّن يرنُ صوتها الرنان . اما رايتموها تتململ وتنادي من على صحائف «الهلال» اين وطني ؟ اريد وطناً اموت لاجله او احيا به — كذا تقول مي

وطنك يا مي هو هذا الجبل القديم الذي كان وطناً من قبل ان تتكوّن كلمة « الوطنية » في عقول الناس . هنا وطنك . لبنان الوجيع . تغضب عليه

الليالي فتحشره في كل مسألة من مسائل الشرق · ثم نقتطع سهوله · ثم نميته تجويعاً وشنقاً — ولقبس من نور يطلع عليه · لنهلة من مياه الحياة · لرمق يُعاد اليه تزلزل الارض زلزالها وهو لا يزال الشيخ الكريم يضحك من بخل الناس وصغارة الناس · ويفرّق على العالم الشرقي من دماء قلبه وفلذات كبده حججاً ازلية على حقه في الحياة

نعم يامي ليس لنا اعلام ذات خطوط والوان ونجوم واهلة وصلبان ، انما لنا — يارافعة العلم —اعلام سيارة تسيرخفاً قة فوق الهند والحجاز والعراق ووادي النيل والسين والهدسن والامازون

ولنا اعلام قديمة، مضرّجة بدمائنا ودموعنا مطوية في جوف التاريخ· هي ضحايانا القديمة والحديثة · نحملها على ايدينا ونريها للناس فيذكرون الوفاء

هنا وطنك يا ابنة لبنان · فبشّري بالرجوع اليه · فلا يقوم بالاوطان سوى اكتاف الرجال وقلوب النساء

هذا وطنك مجتمع هنا · صورة مصغرةً · برجاله ونسائه وبناته وصحافته وادبائه ومدارسه ومعاهده وكشافته · ليحتفل « بميه » الوحيدة ويشيعها بكلمة حب وحنان

انتِ وطنٌ يامي · بحياتك الفيّاضة التي اذا وزّعت كان منها الف الف حياة · فلا تقولي — فدتك روحي — اين وطني

الارادة عند السوريين

«١»

في الازمنة القديمة يوم كانت الشعوب تعبد قوات الطبيعة الغامضة فتصوّرها بشكل منحوتات ذات اسماء مختلفة ، كان الفينيقيون يقدّسون — بنوع خاص — القوّة الروحية ، فمثلوها بشكل « هرقل » البسوه جلد اسد رمزاً الى القوة

ولم تكن هذه الالهة القومية حامية المزروعات ومفرّقة الخيرات الا رمزاً ناطقاً بنشاط الشعب الفينيقي وارادته وتفوقه في البحار

وقد اقام الاقدمون لهذه الالهة هيكلاً عظيماً في مدينة صور رآه هيرودوتس ووصف عموديه الشهيرين فقال ان احدهما من الذهب الخالص والثاني من الزمرد والعمودان يلمعان ليلاً بنور قوي ساطع

امام مذبح هذا الهيكل كانت وفود المدن والمستعمرات البعيدة تجيء كل سنة وتجدّد قسم الاتحاد ، مقدمة قواها وسلاحها لخدمة الوطن المشترك

ان تاريخ هذا الشعب الذي بدون غزاة وجيوش احتلال اخضع لنفوذه ولمدنيته شطوط وجزر البحر المتوسط جمعاء وتمكن بفضل مبادئه وتجارته من توحيد العالم القديم لهو اجمل ما تمجّد به ارادة الانسان وافصح ما يعبّر به عمّا تأتي به من العجائب . وهو يرينا ان العالم ليس للاقوياء ولا لكثيري العدد

---

(١) تعريب خطاب الاستاذ كيل اده في الجامعة الاميركية في ٤ نوار سنة ١٩٢٣

بل هو لذوي العزم وذوي الارادة ويفسر لنا اسباب عظمتنا وانحطاطنا واحقية آمالنا ، ويدلنا على وسائل النهوض واولها :

ايمان ثابت وارادة مطلقة

هذا ما يقوله لنا كل فصل من فصول التاريخ وكل صفحة من صفحاته

ان نزعات ارادتنا خلال الدهور هي التي خطّت لنا طريق الصعود او الهبوط ،ارتفعنا بارتفاع الارادة وسقطنا بسقوطها

ولعل الشبيبة المجتهدة المصغية اليّ تقول : الا يكفينا العلم للصعود الى القمة ؟

اقول لا يا احبائي! العلم الذي يفرّقه عليكم اساتذتكم بمقدرة نادرة واخلاص لا يعرف الملل ان هو الا منارة تنير بحر حياتكم . ولكن العلم لا يضع المجذاف في يدي البحّار ولا يجرّ القارب الى المرفأ الامين ، العلم لا يشدد عضلات الرجال ولا يقوي نفوسهم الخائرة ليصادموا ويقاوموا عجاج الزوابع العاصفة

يقول هوراس في قصيدة :

يقتضي ان يكون ذا قلب مدرّع بثلاثة دروع من الفولاذ ذلك الرجل الاول الذي اقتحم غضب البحار على قارب ضئيل

ولكن الشاعر تناسى ان اول بحار جابَهَ الامواج كان من ابناء صور او صيدا وان قلبه المدرّع انما كان قلباً فينيقياً وان درعه المثلث كان تلك الارادة الفينيقية التي لا تغلب

ايها السادة : عندما نرى قواعد هيكل بعلبك ، تلك الاصلاد المرمرية القائمة الى علو عشرين متراً بثخن اربعة امتار . عندما نفكر ان هذه الصخور

قُطعت اولاً من اماكن بعيدة ثم رفعت عشرة امتار فوق الارض · عندما تأكد – وذلك بحسب تقدير العلماء – انه يقتضي لجرّ احدى هذه القواعد مسافة متر واحد ، جهودُ اربعين الف رجل يشتغلون معاً ، نتساءل اذا كان هذا الهيكل صنعة شعب جبار او صنعة رجال فوق الرجال

امام هذه الخرائب يقف كاتب افرنسي ويعترف – مجبراً – ان القوة المادية انما هي نتيجة القوة الروحية وان الجهود التي صرفها عمّال هيكل بعلبك انما كانت تتناسب مع قوتهم الادبية ثم يتساءل هذا الكاتب عما اذا كان يمكن لشعوب هذا العصر الضعيفة الاعصاب ان تأتي بمثل هذه العبقريّة المولدة لهذه الغرائب

من العبث ايها السادة ان نبحث اذا كان اجدادنا استعانوا بالبخار ام بالكهربائية · ان القوة التي حرّكت ورصفت بهذا التوازن هذه الاعمدة العظيمة لم تكن قوة مادية فحسبُ · فهيكل الشمس ومدينة تدمر المشيّدة في قلب الصحراء هما شاهدان قائمان يشيران الى الاوج الذي بلغته الارادة السورية

وقد قدّس اجدادنا ارادتهم الحرّة ففضلوا الهجرة ، كما يفعل اولادهم من بعدهم ، على الاقامة في ظل سلطة مقيّدة معتقدين ان ظلاماً ما يقيدون ارادة البشر ، واشراراً ينكرون عليهم وجودها ، انما هم رجال سقطوا عن مستوى الرجال

تعرفون حكاية طاليس الفينيقي ، احد حكماء اليونان السبعة ، الذي بحسب قول ارسطوطاليس كان ابا الفلسفة · كان طاليس هذا مدعواً الى مائدة اماسيس مغتصب عرش مصر فاخذ الحضور يتكلمون عن طبيعة الحيوانات ، ولما سئل طاليس عن رايه اجاب

«ان اشرّ الحيوانات البرية هو المستبد ، واقدر الحيوانات الداجنة على الاذى هو المداهن»

الارادة تكيّف الكائن البشري وتميزه عن الحيوانات والنباتات التي لا تعيش الا لنفسها· بالارادة يقاوم الانسان امياله و يسيّر مستقبله في طريق حرة

يقولون ان من يريد ينال · بل ينال كل شيء

انما الارادة تُفسَّر بالعمل ، والعمل يقتضي له بذل الجهود· لذا لا تندهش عندما نرى من لا يبذل جهداً يؤوب بالخيبة· فالمشروعات البشرية التي كان نصيبها الحبوط هي التي رافقها افلاس ارادة القائمين بها

ان تنفيذ الارادة يتطلب جهداً كبيراً ، و بدناً قوياً سليماً · ولكن الكثير من الرجال يتغلبون على بنيتهم الضعيفة بروحهم القوية · منهم بوزيدونيوس السوري استاذ شيشرون والموحي اليه رسائله الجليلة في الالوهية ، والقدر ، وطبيعة الالهة · هذا الفيلسوف كان مصاباً بداء النقطة ، فيوماً جاءه بومباي خصيصاً ليسمع تعاليمه ، و بينما هو يتكلم فاجاءهُ عارض من اعراض مرضه المبرّح ، فغالب الالم وصرخ :

« مهما تفننت في تعذيبي فلن تجبرني على الاقرار بكونك داء »

هذا مثال من قوّة ارادة لم يكتف صاحبها بالتبشير بها بل علّمها بالمثل الحي

قد نتسائل لِمَ فارق العزم شعوب هذه البلاد وما هي اسباب هذا الانحطاط المؤلم وماذا حل بسبيكة الذهب فتحوّلت الى رصاص ؟

لنعترف بدائنا مع اجتناب الغلو ما امكن

التبر الذي تركه الجدود لم يزل تبراً ولكنهُ دفن في ارض رطبة فغطته النفايات والاوساخ. لقد رمانا الحكم الغابر في جمود عميق فتأكّل الصداء عضلاتنا واوصالنا وانقص من مقدرتنا على الدفاع

ايها السادة: كيف يمكن ان يكون غير ما هو كائن؟ ان شأن الامم ليس كشأن تلك الغادة الخرافية التي نامت في الغابة مئة سنة وافاقت فاذاهي لم تزل غضة جميلة واذا بالغاب لم يزل مخضلاً. ان سباتنا الطويل قد ترك فينا الغضون ومزروعاتنا المهملة لم تلمسها قوة السحر ولم تبق لها ازدهار الربيع

بينما نحن نغطُّ في سباتنا تداعت جسورنا ومعاهدنا وانهالت الاتربة فملأَت مرافئنا

لم يصف كاتب موات الاشياء حولنا كما وصفه لامرتين يوم القت سفينته مرساتها في ميناء صيدا فذكر الزمن الغابر، وذكر الارصفة المرمرية، وقد تزاحمت فيها اشرعة السفن كسرب النسور، ثم فتّش عن المدينة البحرية العظمى ولما لم يجد الا صقالة صغيرة متداعية صرخ:

«كيف تُسحق بقوة خلودك يا اله الدهور»

هو الرقُّ كفَّنَ بالتراب هذه البقعة المخصبة وصوَّب سهامه الى ارادة شعب فارداه مشلولاً فاذا ما تزعزع هذا الكابوس يوماً كان النشاط القوي يستفيق، واذا ما رومية ارعوت ومنحت لبعض مدن السواحل حق الجنسية الرومانية او اشركت ابناءها في الحكم كان النبوغ السوري يفتح له سبيلاً ويشرّف بلاداً انجبته وبلاداً عرفت كيف تستفيد منه....!

اراد تراجان ان يخلد اسمه فاستعان بمهندس سوري دمشقي اسمه ابولودور

فرسم له هذا خطة موقعة من امجد مواقعه وانشأ له على نهر الدانوب جسراً هائلاً وشيَّد له معاهد الفن الروماني الخالد ومنها قوس النصر وعمود تراجان في رومية

كذا نبغت جوليا دونا الحمصية السورية ذات الجمال والذكاء السامي فتسلطت على زوجها وهو جندي افريقي ودفعته الى اقتحام الارجوان الروماني و بفضلها حكم امبراطرة سوريون من عائلة سيفير مملكة تعد مئة مليون نفس وبفضلها دعا هؤلاء الامبراطرة ثلاثة من فقهاء بيروت وحمص وصور وهم بابنيان والبيان و بولس الى استلام اسمى الوظائف القضائية اي وظيفة قاضي القضاة فاوصلوا الشرع الروماني بعلمهم وقضائهم الى ذروته العليا

من يدري ماذا كان حلَّ بهولاء الفقهاء ومنهم واحد استحق لقب امير المشترعين — لو عاشوا في زمن الاستبداد والجهل

ربما كان بابنيان افندي تمكن من ان يصير رئيس كتبة في احدى المحاكم هذا لو جمَّل خطه الى الحد الاخير

وكان البيان افندي ينال وظيفة عضو بداية اذا هو لجأ الى ذوي النفوذ وتحاشى غضب رئيس المحكمة اما بولس افندي فربما كان يتوصل الى وظيفة مدير اجراء اذا تزوج بابنة احد كبار الموظفين

ايها السادة اذا وجب على الانسان ان لا يفاخر بنقائصه فقد وجب عليه علَى الاقل الاقرار بها . ان للمستبدين بنا ، ان للذين كبلوا قوانا وسيرونا الى المهاوي شركاء في الجريمة هي :

انقساماتنا ، ومنافساتنا ، وتطاحننا بعضنا ببعض

كثيراً ما سبكنا حديد اغلالنا وسلاسلنا بايدينا فادخلها الظالمون في اعناقنا وهم واثقون بان انقساماتنا تضني قوانا فلا نتمكن من تكسير القيود . ان الرق الاختياري الذي ضُرِب علينا بعد الرق الاجباري هو اشد انواع العبودية لانه يستمد غذاءه من تخاذلنا

واليوم وقد تحررنا فماذا ننتظر ، ان الاستقلال الحقيقي الذي ينشده الناس لا تلده المعاهدات الدولية .. الحرية الحقيقية التي تمكن الشعوب من السيادة على نفسها هي حرية الارادة وهذه تنال بالتربية الثابتة وبالجهود المتتالية . الحرية لا تنال بسن دستور جديد ولا بانشاء مجلس نواب

لكي نتخلص من « التحكم » يجب ان نتحكم في ارادتنا ، وفي نزعاتنا ، وفي عاداتنا ، تلك المتمكنة منا والمخضعة ايانا كالعبيد

يجب ان نتغلب على الافكار المضرّة التي سببت بلاءنا في الماضي وجعلت لكل مذهب ، ولكل طائفة ، قومية خصوصية ثم ضربتها بعضها ببعض فقضت على فكرة الوطن ومنعتنا من ان ننشأ كأمة

لنقوِّ – في هذا السبيل جمعياتنا العلمية والوطنية ولنضمّ اليها كل ما في الامة من نشاط وذكاء ومقدرة بدون تمييز في الاعتقاد ليتم لنا التقرُّب ثم الامتزاج . فمتى اجتمعنا وعملنا معاً سرنا نحو التآخي، وبالاجتماع والعمل نعرف حاجات بعضنا ونسير ببطء نحو غاية الكمال المشتركة

لنمشِ ! ولا نخشى النميمة والحسد، هل يحجم الجندي عن الهجوم خشية ان يُجرَح ، ومن ذا يقول ان الحسد هو سلاح جارح ؟ او ليس هو داء مثل سائر الادواء وصاحبه اولى بالرحمة ؟ لكي نتخلص من جمود ومن شلل روحي

بهما نُضام ، علينا ان لا نكتفي بالارادة الناقصة والعلم الناقص . ولكي نتّقي العثرات وما تجرّه من اليأس ، علينا ان نوحّد جهودنا ولا نخلط بين التمني الذي لا يكلف شيئاً وبين الارادة المولّدة التي تتطلب جهوداً متتابعة وضحايا عظمى

ايها السادة ، لا يكفي ان نتمنى لبلادنا الفلاح والاستقلال . يجب ان « نريد » ذلك « ونريده » من كل قوانا .

واحسن شعار يمكننا ان نتخذه لنا ، كلمة زوج جوليا دونا الى قواده وهو على سرير موته . وهي :

اشتغلوا

ختام

اشتغلوا ! اشتغلوا !

كذا يصرخ الاستاذ اده من فوق منابر بيروت

ما اجمل هذه الكلمة وما احسنها آية يُختم بها كتابٌ اهديه الى امتي العزيزة وكليّ شوق ورجاء ان اسير في طريق المعرفة ، وان استنير بقبَسٍ من نور المحبة — محبة البلاد واهلها — حتى احسن الخدمة في حياتي الكتابية

. . . . . .

اكتب هذه الصفحة الاخيرة يوم المولد النبويّ الكريم .
اكتبها واصوات التهليل ترنّ في أذني . هو العيد الاول في حياتنا الوطنية ، هو العيد الاول تمشي فيهِ راية المحبة — هلال يحضن صليباً — تمشي خفّاقةً فوق رؤوس الشبيبة المسيحية السائرة الى الجامع ، للمرّة الاولى ، للاحتفاء بالعيد

هي نسمة طاهرة اضمها الى هذه النسمات

هي صفحة ذهبية جاءت اليوم عفواً وجلست في منتهى هذا السفر الصغير .

انها صفحة جميلة ، انها صفحة مباركة .

. . . . . .

اشتغلوا ! اشتغلوا ! الطبيب في طبه ، والمهندس في زراعته ، والاديب في ادبه

وعندما نرتاح من اشغالنا ونأوي الى بيوتنا ، لنذكر غرسةً صغيرة زرعناها معاً يوم المولد الكريم

تلك هي غرسة التفاهم والمحبة

لنسقها من دموعنا ، من دموع فقرنا ، وجهلنا ، وذلّنا . ولنحلّها في مرتفعٍ ، لائقٍ ، منظور ، حتى نراها في كل آن . ونسمعها تقول :

تفاهموا ، واتحدوا

سلمى

بيروت ٢٢ تشرين الاول سنة ١٩٢٣

فهرس

آثار

كاتبة النسمات

الارواح النائمة = خطاب منشور في عدّة صحف

ابناء الفقر = محاضرة مطبوعة على حدة

فتاة اورشليم = رواية معرّبة نشرت في «المرأة الجديدة»

مذكّرات شرقية = كتاب جاهز للطبع

شرقيات لوتي = رسالة تحت التاليف

مقالات عديدة في الجرائد والمجلات انشاء وتعريباً

